إلى
حماة الإسلام

عبد الحميد كشك

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى حماة الإسلام

الحمد لله رب العالمين وصلاة وسلاماً عليك يا سيدى يا أبا القاسم يا رسول الله يا خاتم الانبياء والمرسلين.

أما بعد/

فمن اجمل الدعوات التى أمر الله بها رسوله ومصطفاه ان يدعو بها الزيادة فى العلم.

قال تعالى/ وقل رب زدنى علما.

فمن أراد الدنيا فعليه بالعلم.

ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم.

ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم.

والعلم أفضل من المال لانه يحرسك وأنت تحرس المال.

والعلم النافع هو الذى يخرج الناس من ظلمات الجهل إلى بؤرة الضوء فى عالم المعرفة.

وهذا كتاب احتوى على موضوعات تنير الافئدة باذن ربها عندما تشرق اضواؤها فى ساحات القلوب التى شرفها الله بالدفاع عن الاسلام والذود عن حياضه كتبتها عسى الله أن يرشد بها الحائرين وينبه بها الغافلين ويهدى بها السالكين وقد جاءت فى وقت أدلهمت فيه الخطوب واظلمت الفتن واحتدمت الاهواء وزاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وإذا ما ثارت الفتن وماجت فالخروج منها التمسك بكتاب الله والسير وراء هدى رسوله ومصطفاه.

فيا حماة الإسلام كونوا انتم الأطباء إذا اشتد الداء والنور إذا احتدمت الظلماء واعلموا أن خير الناس من تعلم القرآن وعلمه «يا أيها الناس قد جاءتكم موعظمة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين»

المؤلف

عبد الحميد كشك

ـ نظرات فى سورة النحل :

يقول جل شأنه : (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكن فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ان ربكم لرؤوف رحيم والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون).

هذه أنواع من المخلوقات إشتملت على فوائد عديدة لها جليل الأثر فى حياة الانسان حتى ان القرآن لكثرة ما فيها من فوائد أشار إلى بعضها : ففيها دفء فى أصوافها وأوبارها وأشعارها وفيها اللحوم التى تؤكل وفيها الركوب على ظهورها وحمل الاثقال التى لا طاقة لنا بحملها وفيها الفوائد المعنوية وهو ذلك الجمال فى رواحها وسروحها وفيها الزينة إذا وقعت العين على رؤيتها واستمعت الأذن إلى أصواتها من رغاء وثغاء وغير ذلك.

ولما كانت فوائدها لا تحصى ولا تستقصى فقد أجملها القرآن فى قوله : (منافع) ولك بعد ذلك ان تقول فى هذه العبارة ما شئت من ذكر تلك الفوائد مما يطول شرحه ويكثر ذكره سبحانك ربى :

عجز اللسان عن الثناء فانه

تتصاغر الأفكار دون مداه

من كان يعرف أنك الحق الذى

بهر العقول فحسبه وكفاه

وينتقل بنا النظم الكريم الى عالم الفلك فيقول جل شأنه : «وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون» وفى لفظ «التسخير» ما يدل على منتهى التذليل والتطويع دونما مخالفة أو انحراف أو عصيان لأمر الله .. وفى قوله تعالى : «والنجوم مسخرات بأمره» اشارة عجيبة فانها جملة اسمية مكونة من مبتدأ وخبر وأن مجيئها بهذه الصيغة لدليل على عظم عالم النجوم وما يحتويه من ثبات واستقرار فى النظام والإبداع .. فماذا يقول علماء الفلك فى هذه العوالم الضخمة؟

إن كل ما وصل إليه العلماء هو التأكد بأنه مهما تقدمت العلوم ومهما أستحدثت وسائل البحث وأجهزة الكشف فان العلم لم يصل الى ذلك على سبيل القطع: فعدد النجوم والكواكب أمر يستحيل على العلماء أن يصلوا إلى حقيقته لان ذلك فوق الادراك وأكثر مما يتخيله العقل. يحدثنا حجة الفلك العالمى السير «جيمس

جينز» فى كتابه «الكون الغامض» فيقول: «ربما كان مجموع عدد النجوم التى فى الكون قريبا من مجموع عدد حبات الرمل التى تغطى شواطىء البحار فى العالم كله».. ويقول كذلك فى كتابه : «النجوم ومسالكها» يكاد يكون من المؤكد ان هناك أكثر من ٦٠ نجما مقابل كل رجل وامرأة وطفل على وجه الارض وقد يصل العدد إلى ضعف هذا بل ربما إلى ثلاثة أمثاله أو خمسة أمثاله» ثم يضرب لذلك مثلا فيقول : يجب ان نتصور مكتبة ضخمة تحوى على الأقل نصف مليون كتاب من الحجم المتوسط فجميع حروف الطبع التى فى هذه الكتب عددها مساو تقريبا لعدد نجوم السماء واذا كنا نطالع بسرعة صفحة فى الدقيقة مدة ثمانى ساعات فى كل يوم فلا بد لنا من سبعمائة سنة لقراءة هذه المكتبة كذلك أو كنا نعد النجوم بسرعة ألف وخمسمائة نجم فى الدقيقة لاستغرقنا فى ذلك سبعمائة سنة .. أما الأرض التى نعيش عليها فهى أقل من نقطة على حرفٍ فى مكتبتنا ذات النصف مليون مجلد أو على الأصح يجب أن نشبهها بهباءة من التراب بين صفحتين فى أى كتاب من هذه الكتب فى هذه المكتبة.

فاذا كان هذا هو الحال بالنسبة للنجوم وهى شموس تبلغ درجة

حرارتها عشرات الملايين من الدرجات التى يقيسها الانسان بأجهزته ـــ فيكف يكون الحال بالنسبة لعدد الكواكب اذا ما عرفنا ان شمسنا هى واحدة من هذه النجوم وأرضنا أحد الكواكب التى تكون المجموعة الشمسية فاذا كان كل نجم ليس له سوى تسعة كواكب كما للشمس فقط فيا ترى: كم يكون عدد الكواكب؟ وكم يكون عدد الكواكب والنجوم؟.

ان دراسة اشعاعات النجوم قد ألقت بعض الضوء على بعض وحدات هذا الكون ومركزها فى الوجود فقد توصل العلم الى معرفة ان الضوء يسير بسرعة ١٨٦ ألف ميل فى الثانية وقد اختار الفلكيون السنة الضوئية التى تتكون من ٣٦٥ يوما فى كل يوم ٢٤ ساعة وفى كل ساعة ٦٠ دقيقة وفى الدقيقة ٦٠ ثانية لقياس أبعاد النجوم. فاذا وصل الينا ضوء نجم بعد ثانية واحدة كان بعده عنا ١٨٦ ألف ميل .. وقد وجد أن السدم التى ترصد أضواؤها على الأرض تنطوى معها حقيقة : هى انها تبتعد عن الأرض بسرعات تتناسب مع ابعاد المسافات التى بينها وبين الأرض وان آخر ما رصد من السدم وجد أنه يبتعد عن الأرض بسرعة هائلة تبلغ ١٥ الف ميل فى الثانية فمتى بدأ فى حركته؟ ومتى يقف؟ والى اين ينتهى؟!!.

وأمر هذا الوجود ليس عجيبا فى عدد النجوم والكواكب والمسافات التى تفصل بينها فقط وإنما العجب والحيرة بالنسبة للعلماء هو أمر إشراق النجوم .. اذ كيف يمكن ان تظل هذه النجوم مشرقة ملايين السنين؟ هل يرجع ذلك إلى الحرارة الشديدة الموجودة بداخلها والتى يرجح العلماء انها تصل إلى عشرات الملايين من الدرجات الحرارية التى نعرفها؟ أم ان السبب هو وجود عناصر مشعة فى النجوم؟ ام نتيجة الانفجار الذرى؟ أم الانفجار الايدروجينى؟.

اننا نوجه هذا السؤال الى علماء الطبيعة : وهو كيف لا تفنى كتلة النجم؟. اذ المعروف ان كل مادة ملتهبة تفقد من كتلتها بسبب الحرارة.

سبحانك ربى يا من قلت : (وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون).

يا من يحار الفهم فى قدرتك ، وتطلب النفس حمى طاعتك ، تخفى عن الناس سنا طلعتك وكل ما فى الكون من صنعتك .. يا مبدع الكائنات أيا من كل فعلك حكمة بالغة ، يا من قلت وقولك الحق : (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون

والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم. والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغى لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون).

تنتقل بنا الآيات الكريمة إلى الأرض وما بها من نبات وزرع وما احتوته فى بطنها من معادن مختلفات. فيقول سبحانه «وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه ان فى ذلك لأية لقوم يذكرون» ولقد جاء الاسلوب بلفظ «ما» الذى يدل على العموم والشمول للاشارة الى ما فى الأرض من المعادن وأنواع النبات والذهب الأسود السائل .. وكل أولئك ملك لله تبارك وتعالى «له ما فى السموٰات وما فى الأرض وما بينهما وتحت الثرى». ان فى عالم النبات أسرارا عجيبة وحقائق علمية تجعل المتمعن فيها يخر لله ساجدا تناولها الحق جل وعلا فى اشعاعات نورانية تهدى الطريق للباحثين فى تنمية الثروة الزراعية فقال سبحانه تعالى : هو الذى انزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسبحون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ان فى ذلك لأية لقوم يتفكرون».

واذا كان علماء الاقتصاد قد أفاضوا فى الكلام عن الانتاج والاستهلاك فان القرآن العظيم أشار إليهما فى أية كريمة حيث قال فى مصدر الانتاج : الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا».

وفى مبدأ الاستهلاك «فمنه يأكلون» ولقد صدقت يا سيدى يا رسول الله عندما تحث البشرية أن تضرب فى مناكب الارض تطلب الرزق فقلت : «التمسوا الرزق فى خبايا الأرض».

سبحانك يا من قلت : «الذى جعل لكم الارض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم ان فى ذلك لآيات لأولى النهى».

ويا من قلت «فلينظر الانسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم».

ثم ينتقل بنا النظم الكريم إلى عالم البحار .. ذلك الخلق العظيم الذى جاء فى وصفه قول القائل «هو خلق عظيم الداخل فيه مفقود والخارج منه مولود والناس فيه دود على عود اذا هاج هز القلوب وأفزع النفوس».

ويبين القرآن الكريم حال الناس فى البحر فيقول سبحانه : «حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبه وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين».

هذا الخلق العظيم مسخر ومذلل ومنقاد ومذعن لخالقه الذى سخره .. يقول جل شأنه : «وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله لعلكم تشكرون». ان من الحقائق العلمية التى أوضحتها التجارب العلمية : ان جميع المواد اذا ما تجمدت زادت كثافتها فيما عدا الماء فانه المادة الوحيدة التى تناقض هذه الحقيقة إذ تقل كثافتها عند التجميد .. لذلك فإن أى كمية من الماء تتجمد فى البحار عندما يشتد البرد فانها تطفو على السطح مخالفة بذلك القوانين العلمية التى تحكم المواد الأخرى .. وقد لا يتصور الانسان لأول وهلة إذا كان شأن الماء كالمواد الأخرى ــ كيف يكون الأمر؟ فعندما يغوص الجليد فى البحار فانه لا سبيل إلى إذابته

بل ستنخفض درجة حرارة المياه المحيطة به فتتجمد بالتالى فكيف تعيش الأسماك وتحيا النباتات التى فى البحار؟.

لذلك فان الجليد عندما يطفو على الماء تتوافر له فرص الذوبان كما انه يكون طبقة عازلة تحفظ درجة حرارة الماء الذى تحته فلا تصل البرودة الشديدة إلى الاسماك. وتتناقض الحقائق المرئية وليس من هدف إلا قيام الحياة وتدبير أمورها وتيسير سبلها أليس فى ذلك الرد ــ أبلغ الرد ــ على من يقول بميكانيكية الحياة؟ ماذا يقول المكابرون فى هذه الآيات الناطقة بالتدبير الشامل والنظام المحكم؟ من الذى دبر وأنشأ؟ من الذى خلق وأوجد؟ إنه الله القائل : «وخلق كل شيىء فقدره تقديرا» والقائل : «وكل شيىء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال» والقائل : «ان كل شيىء خلقناه بقدر».

هل تستطيع الطبيعة الصماء وهل تقدر الصدفة العمياء ان توجد وان تدبر وان تحكم الخلق أو تنظم «سبحانك هذا بهتان عظيم» .. ويا من قلت «وان يروا آية يعرضوا جهنهم يومئذ للكافرين عرضا الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون

سمعا» .. ويا من قلت «وان يروا كل آية لا يؤمنون بها» ويا من قلت «وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر».

ان الوجود كله صفحة متقنة الإبداع تقر وتشهد بالحق ان لها خالقا مبدعا حكيما مريدا: «ولا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ».

بعد أن اخبر القرآن الحكيم عن عالم البحار إنتقل بنا إلى عالم الجبال وما فى الأرض مثل أنهار وسبل علامات للاهتداء فى متاهات الرحاب الواسعة .. قال جل جلاله : «وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون وعلامات وبالنجم هم يهتدون».

انها عمارة الكون .. تنطق بالقول السديد والبرهان الرشيد. ومن الذى أودع هذه العلامات للارشاد فى الصحارى الشاسعة والوهاد المترامية؟ انه الله جل فى علاه. وبعد سوق هذه الأدلة ووضوحها ونظمها فى هذا المسلك الرائع الاتقان البديع يسوق

القرآن هذا السؤال لكل عاقل بصير وليس المقصود بالسؤال استفهاما .. فان الاستفهام محال فى حق الله اذ هو طلب الفهم وهو يفيد الجهل بالشيىء المستفهم عنه وجل جناب الحق ان يغرب عنه شيىء فى الوجود كله إنما المقصود بالاستفهام هنا فى قوله تعالى : «فمن يخلق كمن لا يخلق؟ افلا تتذكرون».

هو الانكار الذى يفيد النفى .. اى ليس من يخلق كمن لا يخلق فهذا لمجرد التذكرة وعلى كل عاقل ان يفهم ذلك ويتدبره فان ذلك من الأمور البديهية ومن الشؤون الواضحة الجلية كالشمس فى ضحاها وهى تضرب وجه الأرض بسياطها الحامية.

جلت حكمتك يا حكيم أنت الخالق المبدع المصور لا شريك لك فى ملكك يا حبيب القلوب.

هب لى رضاك ... وارحم اليوم مذنبا قد أتاك.

ويا الهى وخالقى ومرادى ... قد أبى القلب أن يحب سواك.

ولما طال تعداد النعم وذكر هذه المخلوقات .. قال القرآن الكريم : «وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها .. ان الله لغفور رحيم» ان الذى أوجد هذه الكائنات العظمى لا بد أن يكون متصفا بالعلم

الشامل الكامل. ولذا جاء بعد هذه الآية قوله جل شأنه : «والله يعلم ما تسرون وما تعلنون» ولقد بلغ من جهل الكافرين ان قال بعضهم لبعض : من أراد ان يتكلم فى شأن محمد ﷺ فليكن ذلك سرا حتى لا يسمع اله محمد ما نقول فيخبره به .. فماذا كان الموقف؟.

لقد هبط سفير الانبياء جبريل عليه السلام بقول الله تبارك وتعالى : «وأسروا قولكم أو اجهروا به انه عليم بذات الصدور ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير».

وحيث قد ثبت ان الله هو الخالق وحده العالم بكل شيىء فان غير الله لا يخلق لأنه لا يملك الايجاد من العدم .. ومن هنا فقد عقب الكتاب الكريم على ذلك بقوله : «والذين يدعون من الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون أموات غير أحياء وما يشعرون ايان يبعثون».

الكون قسمان : كون زمانى وكون مكانى.
فالكون الزمانى : هو الدنيا والآخرة.

والكون المكانى : هو السموٰات والأرض.

واذا كان الله تعالى قد تحدى العالم ان يأتى بسورة من مثل القرآن الكريم فقد تحداهم بالكون المكانى ان يخلقوا ذبابة حيث يقول سبحانه «يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له. ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنفذوه منه ضعف الطالب والمطلوب».

وهكذا فان الادلة تتجلى فى تؤده وثبات كأنها الجبال الشم والرواسى الشامخات فيقول سبحانه «ان الله لا يستحى ان يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها» فماذا يقول العلم عن تلك الخليقة ومالها من أسرار حارت فيها عقول الباحثين؟.

يقول البروفيسور أردين ليا الاستاذ بجامعة جورجيا الامريكية انه قام بتجارب جراحية على مخ البعوضة تحت الميكروسكوب وذلك لمساعدة العلماء فى السيطرة على أخطار هذه الحشرات. ووجدمن دراسة نظام الهيرمونات والتكاثر لدى إناث البعوض الذى ينتشر فى المستنقعات وبمعرفة الطريقة التى تعمل بها الغدد الصماء فى البعوض انه يمكن مساعدة العلماء الذين يؤمنون بأن منع تكاثر الحشرات

هو أفضل السبل للسيطرة عليها .. فقد استطاع الدكتور ليا إزالة الخلايا التى تعرف باسم خلايا افرازات الاعصاب من مخ البعوضة وكذلك بعض الغدد من الرقبة ووجد بعدها ان البعوضة لا يمكنها بعد ذلك وضع البيضة».

ان قضية التوحيد بحق هى مركز الدائرة الذى تسبح حوله الأدلة الباهرة والبراهين الساطعة «إلهكم إله واحد». انها قضية لا إله إلا الله. فمن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة. لا إله إلا الله اخلو بها وحدى. لا إله إلا الله افنى بها عمرى. لا إله إلا الله يغفر بها ذنبى. لا إله إلا الله ادخل بها قبرى لا إله إلا الله القى بها ربى.

● ● يحاول المستشرقون ومن على شاكلتهم من المبشرين والمستغربين ان يثيروا الغبار على كل قضية من قضايا الاسلام بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير وهم فى الحقيقة أقزام يمضغون الهواء ويحاولون أن يفتلوا من الرمال حبالا وان يطاولوا السماء ويمدوا الى الشمس يدا شلاء ..

من هؤلاء المبشرين المتخصصين لنقد القرآن وعقائد الاسلام ذلك المبشر «صمويل زويمر» الذى قال قال فى كتابه «بلاد العرب

مهد الاسلام» فى فصل عن «العلوم والفنون العربية» : ان «الشهد» لم يزل معدودا كالترياق فى بلاد العرب إستنادا إلى القرآن والحديث وقد كانت الاشارة الوحيدة إلى الطب فى وحى محمل ﷺ هذه الكلمة ـ الغبية ـ التى يقول فيها عن النحل ان «يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون» وقد كان هذا هو العلاج الوحيد الذى وضعه الله فى كتابه.

وان الرد على هذا العلامة الغبى سهل ميسور. فان المعنى الذى تفسره تلك الآية أن الشهد شفاء للناس ولم تقل انه كل الشفاء ولا انه شفاء من جميع الأمراض فان وصف الشهد بهذه الصفة لا يزيد على انه دواء من الأدوية كما يوصف أى عقار من العقاقير فى الصيدليات .. أما حكم ذلك المبشر ـ بالغباوة على وصف الشهد ـ بالشفاء فليس له رد غير ذلك الكتاب الذى ظهر باللغة الانكليزية بعد وفاة «زويمر» ببضع سنوات وهو عن الطب الطبيعى يعقد المؤلف فيه لخصائص الشهد الطبية فصلا مستقلا يوشك ان يجعله صيدلية وافية تغنى عن عشرات من العقاقير. ان هذا المؤلف

هو الدكتور «جارفس» الطبيب المتخرج فى مدارس الطب الحديث وصاحب المباحث العلمية العديدة.

يقول عن الشهد : ان التجربة المحققة اثبتت أن البكتريا لا تعيش فى الشهد لاحتوائه على مادة «البوتاس» وهى تحرم البكتريا تلك الرطوبة التى هى مادة حياتها. ويقول : ان الدكتور «ساكيت» استاذ البكتريا بكلية الزراعة فى فورت كولنر — وضع انواعا من جراثيم الأمراض فى قوارير مملوءة بالعسل الصرف .. فماتت جراثيم التيفود بعد ثمان واربعين ساعة. وماتت جراثيم النزلات الصدرية فى اليوم الرابع وماتت جراثيم «الدوسنتاريا» بعد عشر ساعات .. وماتت جراثيم أخرى بعد خمس ساعات .. ثم استطرد المؤلف الى بيان المواد الغذائية الموفورة فى — الشهد — فذكر منها الأغذية المعدنية وعدد أكثر من عشرة معادن غذائية تدخل فى تركيبه ونقل تقرير الاستاذ «شويت» العالم الكيماوى الذى يقول فيه : ان الاغذية المعدنية تختلف باختلاف الوان الشهد : فالنحاس والحديد والمنغنيز أوفر فى الشهد الضارب الى السواد والحديد ضرورى لاتصاله بالمادة الملونة للدم أو الهيموجلوبين. ويلى ذلك كلام عن

المعادن الغذائية وعلاقتها بالوان هذا الشراب كما جاء فى القرآن الكريم..

وهو يشير الى اختلاف الوانه وما احتوته من اسباب الشفاء.

ثم اجمل الطبيب مزايا المادة السكرية فى الشهد فعدد منها :

ـ انها لا تهيج جدران القنوات الهضمية ، انها سريعة التمثيل فى البنية.

ـ انها تتحول سريعا الى طاقة بدنية ـ انها بين انواع السكريات اوفقها للكليتين.

ـ انها مناسبة للمشتغلين بالالعاب الرياضية.

ـ انها مساعدة طبيعية لعملية الهضم فضلا عن سهولة الحصول عليها.

ـ انها مهدئة ملطفة.

ومضى الطبيب فى بيان خصائص الشهد النافعة للعلاج وغذاء الكبار والصغار ولم يذكر فى أى فصل آخر دواء طبيا له مثل هذه الخصائص أو لخصائصه مثل هذا الثبوت بالتجارب الواقعة وتجارب المعامل. وهذا فى حد ذاته أبلغ رد على زويمر وأمثاله ممن يتسمون

بالزيغ والتعصب والمغالطة. فليسأل الانسان نفسه اهناك نظام يقوم بلا منظم أو تدبير ينشأ غير عناية؟ وهل تستطيع الطبيعة الصماء أو الصدفة العمياء ان توجد نظاما أو تشيد كونا متكاملا منسقا كل ما فيه ينطق بالحكمة وينفى العبث؟.

سبحانك ربى انت خالق كل شيء وأنت على كل شيىء قدير. يا من لا تدركه الأبصار ولا تحويه الاقطار ولا يؤثر فيه الليل والنهار وهو الواحد القهار.

وتنتقل بنا الآيات الكريمة بعد هذا إلى النهاية المحتومة والمصير المكتوب على كل انسان فيقول تعالى «والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئا ان الله عليم قدير».

فهذا النص الكريم ينبه ويرشد بعد آيات النعم ـــ الى انه لا بد من المصير المحتوى للقاء الله رب العالمين. لذلك فاننا نرى الكتاب العزيز فى مواضع عديدة يؤكد هذا المعنى .. اسمع هذا المشهد القرآنى الذى يقول الله عز وجل فيه : «أأنتم أشد خلقا ام السماء بناها رفع سمكها فسواها. واغطش ليلها واخرج ضحاها والأرض

بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال ارساها. متاعا لكم ولانعامكم».

وبعد هذا نبه الى المصير المحتوم الذى لا بد من أن نلاقيه جميعا فقال عز شأنه : «فاذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الانسان ما سعى» ثم انتقل معه الى مشهد آخر يزيد المعنى توكيدا حيث يقول الله جل شأنه «فلينظر الانسان الى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم» ثم ينبه بعد ذلك الى ما سنلاقيه جميعا فيقول جل شأنه : «فإذا جاءت الصاخة يوم يفر المرء من اخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه».

وهكذا ايها القارىء الكريم يتجلى امامك ان الدنيا مهما اقبلت فهى مولية وان الحياة مهما طالت فانها منتهية .. فالليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر والعمر مهما طال فلا بد من دخول القبر «والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئا ان الله عليم قدير».

فالله تعالى يخبر فى هذه الآية الكريمة عن تصرفه فى عبادة وانه هو الذى انشأهم من العدم ثم بعد ذلك يتوفاهم ومنهم من يعيش حتى يدركه الهرم وهو الضعف فى الخلقة كما قال تبارك وتعالى : الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير» وقد روى عن الامام على كرم الله وجهه ان أرذل العمر خمس وسبعون سنة وفى هذا السن يحصل له ضعف القوى والخرف وسوي الحفظ وقلة العلم ولهذا قال : «لكيلا يعلم بعد علم شيئا» اى بعدما كان عالما اصبح لا يدرى شيئا.

روى البخارى فى تفسير هذه الآية الكريمة عن انس بن مالك رضى الله عنه ان رسول ﷺ كان يدعو فيقول : «اعوذ بك من البخل والكسل والهرم وارذل العمر وعذاب القبر وفتنة الدجال وفتنة المحيا والممات».

فلينظر الانســان مم خلق؟

مم خلقنا؟ من كائن منوى مفرطح الرأس طويل الذنب لا يزيد طوله عن أربعة وخمسين على الالف من المليمتر وتبلغ سرعته فى الطريق الى الرحم نصف ملليمتر فى الثانية الواحدة اتصل هذا

الكائن المنوى ببويضة الأم عندما شاء الله ان يخلق الانسان. فكيف كان خالنا فى عالم الأرحام؟.

كنا نتغذى بغذاء الأم ونتنفس بتنفسها وقد أمدنا الله بالاوكسجين اللازم وجعل درجة الحرارة فى الرحم ثابتة لا تتغير صيفا أو شتاء وكان وزن الانسان عندما بلغ سبعة أشهر وهو فى الارحام خمسة أرطال وعندما بلغ تسعة أشهر كان وزنه سبعة أرطال أو ثمانية .. فكيف اجتاز الطريق من الرحم الى عالم الدنيا وهو طريق ضيق دقيق؟.

ذلك انه لما اراد الله للانسان الخروج أمر الرحم أن تتقلص عضلاته حيث أصبح الأنسان ضيفا ثقيلا عليه فتقلصت العضلات فعبر الانسان هذا المضيق الدقيق ..

والقرآن يجمع تلك الحقائق فى أيات معجزة فيقول : «من اى شيىء خلقه؟ من نطفة خلقه فقده ثم السبيل يسره»..

فكيف كان حالنا عند الخروج من بطون أمهاتنا؟ يقول عز وجل «والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والافئدة لعلكم تشكرون». وبنظرة فاحصة فى

قوله تعالى «لا تعلمون شيئا» تفيد نفى العلم بالكلية اذ يقول علماء اللغة ان الفكرة فى سياق النفى تفيد العموم ثم بعد ذلك زودنا الله بالعلم والمعرفة ليكون ذلك دليل إنعامه وتفضله ولنقابل هذا بالشكر .. والشكر لله أن تسخر نعم الله فى طاعته وان لا تستعملها فى معصيته .. قال موسى عليه السلام لربه : «يا رب كيف أشكرك .. قال له يا موسى تذكرنى ولا تنسانى انك ان ذكرتنى شكرتنى وان نسيتنى كفرتنى وهذا مصداق قوله تعالى : «فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون» وقد مر أحد الناس برجل من الصالحين ابتلاه الله بفقد بصره وعجز فى يديه وهو يردد بلسانه قائلا : «الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به كثيرا من خلقه» فقال له الرجل : فمن اى شيء عافاك؟ قال له : «وهب لى قلبا ذاكرا ولسانا شاكرا» ثم أنشد يقول :

وحمدت الله ربى اذ هدانى
الى الاسلام والدين الحنيف
فيذكره لسانى كل وقت
ويعرفه فؤادى باللطيف

والنتيجة ان غير الله لا يمكن بحال من الاحول ان يتساوى مع الله فالله واجب الوجود لذاته وغير الله حادث بعد العدم والله واجب له كل كمال يليق بذاته وغير الله لا يخلو من نقص والله تعالى واجب له القدم فاستحال عليه الحدوث. وواجب له البقاء فاستحال عليه الفناء وواجب له القيام بالنفس فاستحال فى حقه الاحتياج الى غيره ووجبت له المخالفة للحوادث فاستحال فى حقه المماثلة لغيره وواجب له الوحدانية فاستحال فى حقه الشرك والتعدد ووجبت له القدرة فاستحال فى حقه الجهل ووجبت له الحياة فاستحال فى حقه الموت وغاية الأمر ان كمالات الله تتناهى .. لا يحصرها عد ولا يحيط بها حد.

ينتقل بنا النظم الكريم بعد ذلك الى آية المشاهدة لتدل على عظمة الاله الخالق المهيمن من ان تلك الآية هى : عالم الطير حيث يقول جل شأنه : «ألم يروا الى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن الا الله ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون».

يقول المفسرون فى هذه الآية الكريمة : ينبه الله سبحانه وتعالى عباده للنظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض كيف جعله

يطير بجناحين فى جو السماء ما يمسكه فيه إلا الله بقدرته تعالى وجعل فيها قوى تفعل ذلك وسخر لها الهواء يحملها ويسيرها. كما قال تعالى فى سورة الملك : «او لم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن انه بكل شيىء بصير».

واعلم يا اخى ان عالم الطير فيه من حقائق الاسرار ودقائق الاخبار ما ينبىء عن عظمة الخالق الكبير. فقد نطق العلم مخبرا عن هذه الاسرار كيف جهز الله الطير بها لتلائم حياته فى هذه الدنيا التى يعيش فيها ويطير فى اجوائها.

يقول علماء الكون ان الجهاز الهضمى للطيور يختلف اختلافا كبيرا عن الجهاز الهضمى فى الحيوانات مما يؤكد دقة المرمى ويظهر حسن القصد ويوضح جميل الصنع .. اذ يمتد من رأس كل طائر جزء صلب خال من الاسنان عظمى التركيب هو المنقار الذى يستخدم فى التغذية بدلا من الفم والشفتين والاسنان عن سائر الحيوان اذ يبتلع الطير غداءه بلا مضغ وتختلف مناقير الطيور باختلاف انواع غذائها.

فالطيور الجارحة كالبوم والحدأة ذات منقار قوى مقوس حاد على شكل خطاف وذلك لتمزيق اللحوم بينما الأوز والبط لها مناقير عريضة منبسطة مفلطحة كالمغرفة تلائم البحث عن الغذاء فى الطين تحت الماء وعلى جانب المنقار زوائد صغيرة كالاسنان لتساعد على قطع الحشائش.

اما الدجاج والحمام وباقى الطيور التى تلتقط الحب من الأرض فمناقيرها صغيرة مدببة لتؤدى هذا الغرض .. بينما منقار البجعة مثلا طويل طولا ملحوظا ويمتد من أسفله كيس كبير يشبه الجراب ليكون كشبكة الصياد اذ ان السمك هو غذاء البجعة الأساسى.

ومنقار الهدهد وأبى قردان طويل مدبب أعد بإتقان للبحث عن الحشرات والديدان والتى غالبا ما تكون تحت سطح الأرض ويقول العلم انه يمكن للانسان ان يعرف غذاء أى طير من النظرة العابرة الى منقاره.

أما باقى الجهاز الهضمى للطير فهو غريب عجيب فلما لم يعط أسنانا فقد خلقت له حويصلة وقانصة تهضم الطعام ويلتقط الطير

مواد صلبة وحصى لتساعد القانصة على هضم الطعام. تأمل معى: من الذي هيأ لعالم الطير هذا النظام وارشده الى ان يسلك سبل الحياة كما قال سيد المرسلين ﷺ : «لو توكلتم على الله حق توكله. لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا».

هل تستطيع الطبيعة الصماء أو الصدفة العمياء ان توجد هذا النظام البديع والاتقان الحكيم؟ «قال فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى قال قال فما بال القرون الأولى؟ قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى. الذى جعل لكم الارض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وانزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم ان فى ذلك لآيات لأولى النهى».

إنما أردنا بتلك اللمحة ان نوضح لقطتين هامتين يلاحظهما القارىء لكتاب الله العزيز بعين البصيرة .. فهذه السورة الكريمة اشتملت على مشاهد عديدة من النعم العظمى. وقد لاحظنا أنها كلما ذكرت جملة من النعم عقبت عليها بتعقيب يظهر طبائع

الانسان الذى لا يقابل هذه النعم بما يليق بها من شكر الاله الواحد وذلك كما جاء فى سورة «الرحمن» عقبت كل نعمة بـ «فبأى آلاء ربكما تكذبان».

وفى سورة النحل جاء عقب المشهد الاول من النعم قوله تعالى «وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها» ثم نطق القرآن الكريم بقوة وصراحة فقال «فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة» ثم بعد ذلك عرضت السورة مشهدا آخر من النعم وذلك من اول قوله تعالى «والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ان فى ذلك لآية لقوم يسمعون» إلى قوله تعالى : «والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات».

ثم عقب على هذا المشهد من النعم بما يظهر طبائع الناس من اعراضهم عن الشكر فقال سبحانه : «أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون».

ثم استعرضت السورة مشهدا ثالثا من النعم وذلك من اول قوله تعالى «والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا» الى قوله

جل شأنه «كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون» ثم عقبت على هذا المشهد الكريم بما يظهر طبائع الناس من إنصرافهم عن شكر المنعم فقال سبحانه «يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها واكثرهم الكافرون».

وقد ذكروا أن أعرابيا أتى النبى ﷺ فسأله فقرأ عليه رسول الله ﷺ «والله جعل لكم من بيوتكم سكنا» فقال الاعرابى نعم قال «وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا» قال الاعرابى نعم ثم قرأ عليه .. وكل ذلك يقول الأعرابى نعم حتى بلغ «كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون» فولى الاعرابى فانزل الله تعالى «يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها واكثرهم الكافرون».

وقد أظهرت لنا مواقف الانسان من نعم ربه وكان ينبغى عليه أن يكون مقرا بالفضل عارفا بما يكافىء جزيل النعم وقد اختتمت هذه السورة بموقفين كريمين لنبيين عظيمين وقفا موقف الشكر والصبر نبى الله ابراهيم ونبى الله محمد عليهما الصلاة والسلام. يقول القرآن فى حق ابراهيم الخليل عليه السلام «ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم وآتيناه فى الدنيا حسنة وانه فى الآخرة لمن الصالحين».

ويقول فى حق خاتم الانبياء سيدنا محمد ﷺ «واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون». فما فما أجمل الشكر عند الرخاء والصبر عند الضراء ان امره كله لهو خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: ان اصابته سراء شكر فكان خيرا له وان اصابته ضراء صبر فكان خيرا له.

فقد سبق ان قررنا ان القرآن الكريم فى مواضع كثيرة بعدما يذكر نعم الله فى الدنيا علم عباده ينبه عقولهم ويشد افئدتهم الى ما بعد الدنيا من البعث والجزاء وقد سقنا الشواهد الدالة على ذلك.

وهذا مشهد آخر من تلك المشاهد فالله تعالى بعدما ذكر النعم الجزيلة والالاء الجليلة أخذ بأيدينا ليوقفنا فى عرصات القيامة وساحات الحساب فقال سبحانه «ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ثم لا يؤذن للذين ولاهم يستعتبون واذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون واذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك فألقوا إليهم القول انكم لكاذبون وألقوا الى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون».

وهكذا .. وجدنا أنفسنا قد انتقلنا من بطون الامهات وقمنا بتمثيل أدوارنا على مسرح الحياة وتمتعنا بنعم الله ثم انتقلنا بعد ذلك الى هذا المشهد القرآنى الذى يأخذ بالألباب ويجعل القارىء يستولى عليه العجب حيث يجد هذه الصورة الرهيبة فى عرصات القيامة: الظالمون يرون العذاب فلا يخفف عنهم والمشركون يرون الشركاء فيلزمونهم الحجة والذين كفروا وصدوا عن سبيل الله يضاعف لهم العذاب وكل نبى يشهد على أمته قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة والكافرون قد انقطعت اعزارهم وبطلت حججهم فلا يؤذن لهم كما قال تعالى «هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون» وقوله تعالى «ولا هم يستعتبون» اى لا يطلب منهم العتبى اى الرضا اذ انه لا فائدة من العتاب مع العزم على السخط وعدم الرضا وهم لا يكلفون أن يرضوا ربهم فقد فات زمنه فى الدنيا وذهبت السكرة وحلت الفكرة وانفض السوق فربح فيه الرابحون وخسر فيه الخاسرون.

فاذا كانت الدنيا دار عمل ولا حساب فالآخرة دار حساب ولا عمل ويومئذ لا ينفع التمنى فلا يقبل من أحدهم أن يقول «يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا» «يا

ليتنى لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابية يا ليتها كانت القاضية» «يا ليتنى كنت ترابا»«ياليتنى قدمت لحياتى» «يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا» عندئذ يقول لهم «أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير».

فبادر يا أخى بالرجوع الى الملك الديان قبل فوات الأوان حيث لا ينفع الندم.

عجوز تمنت أن تكون صبية
وقد نحل الجنبان واحدودب الظهر
فسارت الى العطار تبغى شبابها
وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر

هذه وقفة فى محكمة الجنايات الالهية العليا للحكم فى أكبر جناية ترتكب ألا وهى الشرك الذى نص عليه قانون الله تعالى قائلا «ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن

يشرك بالله فقد افترى اثما عظيما» وقد دارت المناقشة بين المشركين والألهة فى هذه الجلسة العاصفة على النحو التالى : قال المشركون ربنا هؤلاء الذين كنا ندعوا من دونك فردت عليهم الآلهة التى كانت تعبد فى الدنيا : انكم لكاذبون .. وهذا مصداق لقوله تعالى «واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عـزا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا» وقد قال القرآن الكريم على لسان الخليل ابرّاهيم عليه السلام «ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا».

فماذا يقول المشركون بعدما لزمتهم الحجة وحق عليهم القول انهم كما قال الله «وألقوا الى الله يومئذ السلم» اى ذلوا واستسلموا يومئذ فلا أحد إلا سامع مطيع كما قال تعالى «اسمع بهم وابصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين» أى ما اسمعهم وما ابصرهم وهو أسلوب فى التعجب كما قال تعالى «وعنت الوجوه للحى القيوم» اى خضعت وذلت واستكانت وانابت واستسلمت : «وقد خاب من حمل ظلما» وقوله تعالى «وضل عنهم ما كانوا يفترون» اى ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجد.

وبعد أن تمت المحاكمة : أصدرت محكمة العدل الالهية الكبرى حكمها المبرم الذى لا يقبل إستئنافا ولا نقضا فقال سبحانه «الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون» اى عذابا على كفرهم وعذابا على صدهم الناس عن اتباع الحق «وان يهلكون الا انفسهم وما يشعرون».

العدل والاحسان وايتاء ذى القربى قواعد البناء القوية :

يوضح لنا الحق سبحانه وتعالى القواعد الاكيدة الوطيدة والاركان التى لا تهتز ولا تختل ما بقيت الدنيا ويوم يقوم الحساب فيقول سبحانه «ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون».

هذا النص الكريم الخالد ورد فيه الامر بثلاثة أشياء والنهى عن ثلاثة أشياء. يقول ابن مسعود رضى الله عنه : ان اجمع آية فى القرآن فى سورة ــ النحل ــ هى قوله تعالى «ان الله يأمر بالعدل والاحسان» الآية.

وقد ذكروا أن الحكيم العربى «اكثم بن صيفى» ارسل وفدا من اتباعه الى رسول الله ﷺ يسألونه فالتقوا به فقالوا : نحن رسل

اكثم بن صيفى وهو يسألك : من أنت؟ وما أنت؟ فقال النبى صلوات الله وسلامه عليه : «أما من أنا : فأنا محمد بن عبد الله وأما ما أنا: فأنا عبد الله ورسوله» ثم تلا عليهم هذه الآية «ان الله يأمر بالعدل والاحسان» الآية. قالوا : ردد علينا هذا القول فردده عليهم حتى حفظوه فأتوا اكثم فقالوا : أبى ان يرفع نسبه فسألنا عن نسبه : فوجدناه زاكى النسب شريفا وقد رما إلينا بكلمات قد سمعناها فلما سمعهم اكثم قال : «انى أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملائمها فكونوا فى هذا الأمر رؤساء ولا تكونوا فيه أذنابا».

لقد أمر مولانا تبارك وتعالى بالعدل اولا والاحسان ثانيا ثم بإيتاء ذى القربى. والعدل هو القاعدة الاصيلة فى بناء الامم اذ هو وضع الشيء فى موضعه واقامة الميزان بالقسط واعطاء كل ذى حق حقه .. ولما كان العدل هو الذى يقيم الامم ويقومها فان الظلم يدمرها ويهلكها وقد تضافرت آيات الكتاب العزيز على ذلك .. قال جل جلاله : «ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا» وقال «وما كان ربك ليهلك القرى بظلم واهلها مصلحون» وقال : «وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا» وقال «فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة

فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد« وقال «وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة اخذتها وإلى المصير» وقال «فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم».

وهكذا تقوم الأمم بالعدل وتدمر بالظلم.

أما الاحسان فهو زيادة عن العدل اى اذا كان العدل أساسا فالاحسان تفضل وكرم ولذا فان الله تعالى يقول فى شأن العدل : «والذين اذا أصابهم البغى هم ينتصرون» ويقول فى شأن الاحسان «واذا ما غضبوا هم يغفرون» ويقول فى شأن العدل : «وجزاء سيئة سيئة مثلها» وفى شأن الاحسان : «فمن عفا وأصلح فأجره على الله «ويقول فى شأن العدل : «ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل». وفى شأن الاحسان «ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور».

والله جل جلاله اذ يقول : (يا أيها الذين أمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون».

وعندما أتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بتاج كسرى وسواريه قال : ان الذى أدى هذا لأمين. فقال على بن ابى طالب كرم الله وجهه عففت فعفوا ولو رتعت لرتعوا فعمر هو الذى قال لو عثرت بغلة بالعراق لسألنى الله عنها لما لم تصلح لها الطريق يا عمر؟ وهذه صورة مشرقة من حياة الفاروق رضى الله عنه فقد رآه رجل من الفرس ينام فى ظل شجرة وهو مستغرق فى نوم عميق دون ان يكون حوله من يحرسه ذلك لأنه أقام العدل فوقف الفارس يعجب : أهذا أمير المؤمنين؟ ثم قال : «حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا عمر».

وقد روى عن رسول الله ﷺ انه قال : «يوم من امام عادل أفضل من عبادة ستين سنة وحد يقام فى الأرض بحق أزكى من مطر أربعين صباحا» ورى عنه أيضا صلوات الله وسلامه عليه انه قال : «أحب الناس الى الله يوم القيامة وأدناهم منى مجلسا: أمام عادل وابغض الناس الى الله تعالى وابعدهم منى مجلسا : إمام جائر». اذا كانت هذه هى مكانة العدل فان الاحسان فيه زيادة عن العدل وفضل ورحمة وكرم وقد يأتى الاحسان بمعنى آخر كما بين ذلك الصادق الأمين محمد ﷺ فى قوله : «الاحسان : ان تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك» فهذا معنى يرتفع بالنفس

من غياهب الظلمات وفلول الدجى وحضيض الغبراء إلى قمة شماء فى باذخ العلياء : إذ إشتمل هذا المعنى على درجتين : درجة المشاهدة «ان تعبد الله كأنك تراه» ودرجة المراقبة «فان لم تكن تراه فإنه يراك».

وبهذا يعمل الضمير الحى عمله .. فقد رأى أبو هريرة رضى الله عنه رجلا يغش اللبن بالماء فقال له يا هذا: ماذا تقول إذا قيل لك يوم القيامة خلص اللبن من الماء؟ نعم ان الضمير هو السلطة التى تدفع النفس الى مراقبة ربها وخالقها والاستشعار بهيمنة سلطانه.

وهل ننسى موقف هذه الفتاة التى كانت أمها تغش اللبن ونهاها أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه هذا الفعل ولكنها عادت وغشت اللبن فقالت لها ابنتها : يا أماه ألم ينهك أمير المؤمنين عن هذا؟ فقالت لها : وهل يرانا أمير المؤمنين؟ فقالت لها : ان كان امير المؤمنين لا يرانا فان الله رب العالمين يرانا .. وكان عمر فى هذه الاثناء يمر يتفقد الرعية فرآها تغش اللبن فقال لها : يا عجوز ألم أنهك عن غش اللبن؟ قالت : والله ما غششته يا أمير المؤمنين .. واذا بصوت الضمير ينبعث من داخل هذا الكوخ : صوت ابنتها

يقول لها : يا أماه أتغشين المسلمين وتحنثين فى اليمين وتكذبين على أمير المؤمنين؟ واخذت هذه الكلمات طريقها الى قلب عمر رضى الله عنه ولها رنين قوى أنقى من رنين الذهب فهل يقف عمر منها موقفا سلبيا؟ كلا لقد زوجها لابنه عاصم فانجبت منه خامس الخلفاء عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد العادل الرحيم .. ذلك الذى يوم مات قال رعاة الغنم فى شواهق الجبال : اليوم مات عمر قيل : وما أدراكم بموته؟ قالوا : لأن الذئب قد عدا على الغنم وما عهدناه كذلك فى حياة عمر. ولما تحقق الناس من الخبر وجدوه قد مات فعلا. وقد سئل عمر بن عبد العزيز فى حياته عن هذه الظاهرة العجيبة وهى ان الذئب اصبح يرعى الغنم كأنه كلبها وحارسها فقال لهم «أخلصت مابينى وبين ربى فاخلص الله ما بين الذئب والغنم».

هكذا صارت بنت بائعة اللبن فى بيت الامارة .. وهكذا صارت جدة لأمير المؤمنين .. وهكذا يقوم الايمان ببناء النفوس ويشيد صروحها .. صدقت يا سيدى يا رسول الله : الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك

وهكذا ايها القارىء الكريم : بإقامة العدلِ تحيا النفوس وبالاحسان يرتفع شأنها وبإيتاء ذى القربى يعم الاخاء والرحمة. فليس هناك مكانة تعدل صلة الرحم وأول الارحام فى كشف الصلة الوالدن يليهما الأقرب فالأقرب.

ولمكانة الأرحام العظيمة عند الله فقد عطفت على لفظ الجلالة فى قوله تعالى : «واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيبا» وقد سأل عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه سيدنا رسول الله ﷺ فقال : اى العمل أحب الى الله تعالى؟ قال الصلاة على وقتها قلت : ثم أى؟ قال بر الوالدين قلت : ثم أى قال : الجهاد فى سبيل الله. وقد بين الحديث الشريف الذى رواه ابو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ مكانة الوالدين على اولادهما حيث يقول : «لا يجزى ولد والدا إلا ان يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه».

وهناك العديد من التوجيهات النبوية والارشادات الاسلامية التى تحث على صلة الرحم لما فيها من الفضائل والمزايا حيث يقول سيدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه «من كان يؤمن بالله واليوم

الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخـر فليقل خيرا أو ليصمت».

وتأمل معى ايها القارىء الكريم مكانة الرحم عند الله تبارك وتعالى فى هذا الحديث الشريف الذى يقول فيه الرسول ﷺ : «ان الله تعالى خلق الخلق حتى اذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال : نعم .. أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك قالت : بلى قال : فذلك لك. ثم قال ﷺ : اقرأوا ان شئتم «فهل عسيتم أن توليتم ان تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم واعمى أبصارهم».

ان الآية الكريمة «ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون».
قد اشتملت على أوامر ثلاثة ونواه ثلاثة :

أما الأوامر الثلاثة فهى : العدل ــ والاحسان ــ وايتاء ذى القربى.

وأما النواهى الثلاثة فهى : الفحشاء ــ والمنكر ــ والبغى.

فالبغى والعدل نقيضان لا يجتمعان والاحسان والمنكر ضدان لا يلتقيان. وايتاء ذى القربى والفحشاء أمران متقابلان لا يلتقيان. وفى لفظ (الفحشاء) ما يشعر بما فحش وعظم من الذنوب بحيث تجاوز كل لياقة .. ولذلك ترى القرآن الكريم يعبر عن بعض الذنوب بلفظ (الفحشاء) فيقول فى نكاح زوجة الأب : «ولا تنكحوا ما نكح أباؤكم من النساء إلا ما قد سلف انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا» .. ويقول فى شأن الزنا «ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا» .. ويقول فى شأن الشذوذ الجنسى : «ولوطا اذ قال لقومه. أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون».

كل هذه الكبائر من الذنوب فحشت وزاد خطرها .. من أجل ذلك ورد النهى عنها فى كل صورها قال تعالى : «ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن» وقال جل شأنه : «قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن».

أما المنكر : فهو كل ما تنكره الأذواق السليمة ولا يقره العرف الصحيح. ذلك لأن المنكر ضد المعروف وقد وردا فى آيات كثيرة كما فى قوله تعالى : «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون

بالمعروف وينهون عن المنكر». وفى وصية لقمان لابنه : «يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وأنه عنه المنكر واصبر على ما أصابك» وفى قوله جل شأنه : ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر».

وبنظرة فاحصة فى الكلمتين : تستطيع أن تدرك الفرق الشاسع بينهما فالمعروف فى ظهوره ووضوحه كالشمس وضحاها والقمر إذا تلاها والنهار اذا جلاها .. والمنكر فى قبحه وسوء فعله ونفور النفوس السليمة منه كظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج الانسان يده لم يكد يراها : فأكل مال اليتيم : منكر والسحر : منكر وقذف المحصنات الغافلات : منكر وقتل النفس التى حرم الله قتلها : منكر والتولى والفرار من الجهاد : منكر والغيبة والنميمة وقطع الطريق .. كل هذه منكرات نهى الله عنها وشدد الوعيد لمقترفيها. أما «البغى» : فهو تجاوز الحد وترك العدل والانصاف مما يترتب عليه الظلم وأكل أموال الناس بالباطل وكلمة «الظلم» من أبشع الكلمات وأقساها وقعا على النفس حتى كان إصطدام النفوس بها كإصطدام مطارق الحديد بأوانى الفخار .. ويكفى للدلالة على ذلك ان نقرأ قول الله تبارك وتعالى فى حق الظالمين :

«ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع» وقوله جل شأنه : «أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين» وقوله تعالى : «وما للظالمين من ولى ولا نصير».

استمع معى الى هذا الحديث القدسى الجامع الذى رواه ابو ذر الغفارى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ عن رب العزة جل جلاله ان يقول : «يا عبادى انى حرمت الظلم على نفسى وجعلته محرما بينكم فلا تظالموا ، يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم. يا عبادى : كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم. يا عبادى : كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم. يا عبادى : إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفرونى أغفر لكم. يا عبادى : إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى. يا عبادى : لو أن أولكم وأخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا. يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا. يا عبادى : لو أن أولكم وأخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان

مسألته: ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر. يا عبادى : إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

قال سعيد : كان أبو إدريس إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه «رواه مسلم» وقد سقنا هذا الحديث بطوله لما اشتمل عليه من عظائم الأمور .. ويكفى ان نقف عند قوله جل شأنه : «حرمت الظلم على نفسى». فسبحان صاحب العدل المطلق والعظمة الإلهية.

ولقد أخبر الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه عن بشاعة الظلم يوم القيامة فقال : «إتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فان الشح اهلك من كان قبلكم : حملهم على ان سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم» رواه مسلم.

وتأمل معى هذه العدالة المطلقة فى رد الحقوق إلى أصحابها يوم يقوم الناس لرب العالمين حيث جاء فى الحديث الشريف : «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء» رواه مسلم.

ولحرمة الحقوق وشدة صيانة الاسلام لها : وقف الرسول ﷺ في حجة الوداع يؤكد هذا المعنى فيقول : «ان الله حرم عليكم دماءكم واموالكم كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا .. ألا هل بلغت؟ قالوا : نعم. قال : اللهم فاشهد (ثلاثا) ويلكم أو ويحكم — انظروا : لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض» رواه البخاري. ثم أنظر — بعد ذلك — الى من يغتصب حق اخيه المسلم بغير حق فيغير حدود الارض مثلا ما شأنه؟ وما حاله يوم القيامة؟ يوضحها لنا الرسول الكريم بقوله : «من ظلم قيد شبر من الأرض : طوق من سبع أرضين».

واذا أغرتك قوتك يا ابن آدم : فلم استحكمت فيك شهوتك؟ واذا غرك غناك : فارزق عباد الله يوما!!.

اياك والظلم — يا أخى المسلم — فان رسول الله ﷺ يقول: «ان الله ليملى للظالم فاذا أخذه لم يفلته ثم قرأ: وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه أليم شديد».

قال الله تبارك وتعالى وهو اصدق القائلين «واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ما تفعلون ولا تكونو كالتى نقضت غزلها من

بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم ان تكون أمة هى أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون».

هاتان الأيتان الكريمتان ورد ذكرهما بعد الآية الجامعة لأصول الاسلام ومبادئه وذلك دليل قوى على مكانة العهود فى الاسلام.

والعهد عبارة عن العقد المؤكد باليمين والله جل جلاله يريد أن يعطى العهد مكانة تليق بالوفاء به فيقول: «وقد جعلتم الله عليكم كفيلا» فمن استشعر عظمة الله وهيمنة سلطانه فانه لن يجترىء على نقض عهوده ولذلك جاء ختام الآية: «أن الله يعلم ما تفعلون» اذاً فما دام الله هو الكفيل العالم بالفعل سره وعلنه اوله وآخره صغيره وكبيره فكفى به كفيلا وكفى به عليما.

ثم تأتى الآية الثانية فتشبه ناقضى العهد بعد توكيده : بامرأة خرفاء ذات حماقة وسفاهة غزلت غزلا محكما متقنا ثم نقضته نقضا فذهب غزلها ادراج الرياح وضاع جهدها هباء منثورا .. كذلك نقض العهود بعد توكيدها يضعف الأمة ويودى بمكانة الفرد مهما كانت الدوافع الى النقض ولذلك سمى الله هذا الفعل خيانة ودخلا

وخديعة وغشا فقال : «تتخذون أيمانكم دخلا بينكم» فبالنسبة للأمم ليس المدار على كثرة العدد أو العدة أنما المدار على الثبات والحزم والرجولة والشهامة. قال سبحانه جل من قائل : «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه» وقال تبارك اسمه : «ليجزى الله الصادقين بصدقهم».

واذا كان القرآن الكريم قد شبه ناقض العهود بالمرأة الخرفاء السفيهة فان السنة الشريفة انزلت «الغادر» يوم القيامة مكانة سحيقة من الذل والهوان. وقال صلوات الله وسلامه عليه: ان الغادر ينصب له لواء يوم القيامة فيقال: هذه غدرة فلان وان من أعظم الغدر بعد الاشراك بالله ان يبايع رجل رجلا على بيعة الله ورسوله ثم ينكث بيعته «فلا يخلعن احد منكم يدا ولا يسرقن أحد منكم فى هذا الأمر فيكون فصل بينى وبينه».

وكفى بنقض العهد بشاعة: أنه يجعل صاحبه من أهل النفاق وكفى بالنفاق إثما انه داء عضال ووبال فتاك بكرامة الأمم والأفراد ووضح الرسول الكريم صفات المنافق فقال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان». وقال ايضا فى

رواية للامام مسلم «وان صام وصلى وزعم أنه مسلم» واستمع يا أخى إلى هذه الصورة المشرقة المشرفة من الوفاء بالعهد والتى تمثلت على يدى الصديق رضى الله عنه: فعن جابر رضى الله عنه قال: «قال لى النبى ﷺ لو جاء مال البحرين اعطيتك هكذا وهكذا وهكذا فلم يجىء مال البحرين حتى قبض الرسول الكريم فلما جاء مال البحرين امر ابو بكر رضى الله عنه فنادى: من كان له عند رسول الله عدة أو دين فيأتنا فأتيته وقلت له عما قال لى النبى صلوات الله وسلامه عليه فى حياته فحثى لى حثية عددتها فاذا هى خمسمائة فقال لى خذ مثليها «متفق عليه».

ان الله تعالى امرنا بالوفاء بالعهد ونهانا عن نقض الأيمان بعد توكيدنا ولما كانت الأوامر والنواهى ابتلاء واختبارا فقد ختم الله هذه الآية بقوله تبارك وتعالى : « إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون» وتعقيبا على الوفاء بالعهود والمحافظة على الأيمان نقول انه يجب على المسلم عدة التزامات هى:

النهى عن الحلف بغير الله: فلا يجوز لمسلم ان يحلف بغير الله تعالى فقد قال صلوات الله وسلامه عليه «ان الله تعالى ينهاكم ان تحلفوا بأبائكم فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت».

ـــ من الكبائر التى نهى الله رسوله عنها الحلف بالله كاذبا.

التكفير عن اليمين اذا كان الخير فى غيرها. قال صلوات الله وسلامه عليه: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذى هو خير» رواه مسلم. يقول الله تبارك وتعالى: «ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا ان ما عند الله هو خير لكم ان كنتم تعلمون ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون».

واعلم يا أخى ان مشيئة الله تعالى مبنية على علم وحكمة وان من مشيئته تعالى أن أعطى عباده الاختيار والكسب والعقل والتمييز ووهبهم القوى التى تمكنهم من سلوك الطريقين : طريق الخير وطريق الشر فليس لانسان مجترىء على المخالفة لأوامر الله ان يلقى باللائمة على مشيئة الله. قال سبحانه فى حق الانسان: «فجعلناه سميعا بصيرا. انا هديناه السبيل: اما شاكرا واما كفورا» وفسر السبيل بقوله: وهديناه النجدين» بعدما قال: ألم نجعل له عينين ولسانا

وشفتين» وفسر «النجدين» بقوله : «ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها» وأرشد إلى الخير وحذر من الشر فقال «قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها». وزاد هذه القضية وضوحا وإظهارا فقال : «وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى».

ثم نادى بعد ذلك فى عزة وكبرياء تليق بذاته العلية فقال : «وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر». ثم بين مدى رحمته بعباده فقال : «ان تكفروا فان الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وان تشكروا يرضى لكم» ..

وقد سئل الامام جعفر الصادق رضى الله عنه فقيل له: ما بال الله يريد ثم يعاقب؟ فقال الامام كلمة تكتب بمداد من الذهب قال: «الله أراد بنا وأراد منا فأخفى ما أراد بنا وأظهر ما أراد منا فأحتججنا بما أراد بنا وتركنا ما أراد منا».

تلك كلمة حق فاصلة نوجهها الى «المفلسين» الذين أقدموا على المخالفات الشرعية تاركين أوامر الله وطرحوها وراءهم ظهريا ويشربون ويلعبون وعلى الأعراض يعتدون وفى الحياة يعبثون ويبعثون ثم بعد ذلك يلقون باللائمة على صفحة الغيب .. فاذا كلمت

أحدهم فى ذلك فلا تسمع منه إلا جدالا فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير!!.

ان مشيئة الله صالحة لأن تجعل الناس كلهم أمة واحدة والاضلال والهداية إنما يكونان على حسب استعداد العبد وسلوكه. قال سبحانه: «فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى» ولذا يقال لهذا النادم يوم القيامة «بلى: قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين».

فيا أخى قل لمن عصى ربه وقال أنه أراد بى هكذا قل له: إطلعت على الغيب أم اتخذت عند الرحمن عهدا؟

قل له: ألم يرسل ربك إليك رسولا يبين لك الحلال والحرام؟ قل له: ألم ينزل إليك كتابا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟ وفيه تبيان لكل شيىء؟ قل له: ألم يهبك الله عقلا تميز به الخبيث من الطيب؟

ثم قل له ــ بعد ذلك ــ ألم يرفع القلم عن ثلاث عن المجنون حتى يفيق وعن الصبى حتى يحتلم وعن النائم حتى يستيقظ؟

قل له : ألم يتجاوز ربك بفضله وكرمه عن الخطأ والنسيان وما

استكره الانسان عليه؟.

قل له : ألم يفتح ربك الكريم باب التوبة ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ويبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار؟.

قل له : ألم تسمع إلي قول إبليس اللعين لربه عز وجل: وعزتك وجلالك لأغوينَّهم مادامت أرواحهم فى أبدانهم فقال رب العزة: وعزتى وجلالى لأغفرن لهم ماداموا يستغفروننى؟..

اذن فقوله تعالى: «ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء» لا يفيد إجبار العبد علي سلوك طريق الضلال وذلك كما بينا فى الآيات السابقة ان المشيئة هنا مبنيةٍ على علم الله والعلم صفة إنكشاف لا صفة التزام وجبر.

«ان الله تعالى فرض فرائض فأدوها ونهى عن اشياء فلا تقربوها وحد حدودا فلا تعتدوها وسكت عن اشياء رحمة بكم فلا تسألوا عنها».

وبعد هذه الأية الكريمة تعود الآيات فتؤكد الوفاء بالعهد وتنهى عن اتخاذ الايمان خديعة ومراوغة. اذ أنه سيترتب على ذلك زلة الأقدام بعد ثبوتها هذا فى الدنيا. أما فى الآخرة فعذاب أليم وخزى عظيم ، ثم ينهى الحق تبارك وتعالى عن ان يثرى الانسان بعهد الله

وأيمانه ثمنا قليلا فيخالف بذلك ربه لأن ما فى هذه الدنيا كلها لا يساوى عند الله جناح بعوضة اذا قيس بما عند الله «ان ما عند الله هو خير لكم ان كنتم تعلمون. ما عندكم ينفد وما عند الله باق». ألا كل شيىء هالك إلا ما عند الله وما عنده لا يناله الا الصابرون على طاعته المقيمون لشعائر دينه «ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون».

ثم يقول الله تبارك وتعالى: (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون).

ما اعظم العدالة الالهية وما اجل قدرها وما افضل الكرم الربانى وما أرفع شأنه وعد من الله ــ والله لا يخلف وعده لمن عمل صالحا لا فرق فى ذلك بين الذكر والانثى. والعمل الصالح: هو كل ما جاء موافقا لأوامر الله ورسوله. ولقد وعد الله هؤلاء بوعدين: أحدهما فى الدنيا والآخر يوم القيامة.

أما فى الدنيا فحياة طيبة فيها سكينة وقناعة ورضا من الله وعن الله رضى الله عنهم ورضوا عنه واما فى الآخرة فجزاء بأحسن ما كانوا يعملون.

والايمان شرط أساسى فلا يقبل من الأعمال إلا ما كان مبنيا على الايمان. قال سبحانه: «من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن».

وتظهر ثمرة الإيمان فى الرضا بالقضاء والشكر على الرخاء والصبر عن البلاء ولا يجوز لعبد مؤمن من ان يجزع لما قضى الله .. وكان داود عليه السلام يقول : اللهم انى أسألك أربعا واعوذ بك من أربع: أسألك لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وبدنا على البلاء صابرا وزوجة تعيننى على دينى ودنياى واعوذ بك من ولد يكون علىَّ سيدا ومن مال يكون وبالا علىّ ويتمتع به غيرى ومن جار سوء: ان رأى منى خيرا أنكره وان رأى سوءا نشره ومن زوجة تشيبنى قبل المشيب» فبادر يا أخى بالعمل الصالح لتنال الوعدين الكريمين فى الدنيا والآخرة وسارع بالتوبة وبالرجوع الى الله تعالى فما أجمل الصلح مع الله واعلم ان بناء النفوس مهمة صعبة قام بها الأنبياء ومن نهج على نهجهم من الصالحين المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه. قيل لتقى الدين الحسن البصرى رضى الله عه: ما سر زهدك فى الدنيا؟ فقال: أربعة أشياء. علمت بأن رزقى لا يأخذه غيرى فاطمأن قلبى وعلمت ان عملى لا يقوم به غيرى فاشتغلت به

وعلمت أن الله مطلع على فاستحييت ان يرانى على معصية وعلمت أن الموت ينتظرنى فاعدد الزاد للقاء الله.

● **يا أخا الاسلام :**

سهرت أعين ونامت عيون
في شئون تكون أو لا تكون
ان ربا كفاك بالأمس ماكان
سيكفيك فى غد ما يكون

قد يكون بناء القصور وتشييد البروج وناطحات السحاب أمرا سهلا يرجع إلى المهارة فى فن المعمار ولكن ما أصعب بناء النفوس فان بناءها سر من الأسرار الذى لا يقوى عليه الا الذين صبروا واعتصموا بالله واخلصوا دينهم لله .. إذ أن هذه رسالة الأنبياء وغاية المخلصين وتجارة مع الله لكل من دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين.

ولذلك فان بناء النفوس وتشييدها على اساس الحق وتزكيتها بالصلاح والطهر مطلب عظيم وغاية عليا وهدف من أعز الأهداف.

وقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى مسجد النبى صلوات الله وسلامه عليه يقول لبعض الصحابة: ليذكر لى كل منكم أعظم شيىء يتمناه؟.

قال أحدهم : أتمنى أن يكون لى مثل أحد ذهبا أنفقه فى سبيل الله ، وقال آخر: أتمنى ان يكون لى ملء المدينة خيلا اغزو بها فى سبيل الله ، وقال ثالث: أتمنى أن يكون لى ألف عبد أعتقهم ابتغاء مرضاة الله .. واخذ كل منهم يذكر ما يتمنى وأمير المؤمنين يدير النقاش بينهم ثم توجهوا اليه قائلين: فماذا تتمنى أنت يا أمير المؤمنين؟ قال عمر: أتمنى ملء هذا المسجد رجالا أمثال أبى بكر الصديق رضى الله عنه!.

طيب الله ثراك يا عمر : فقد أصبت كبد الحقيقة وتمنيت المطلب الأعظم فأمثال أبى بكر من ذوى النفوس المطمئنة والافئدة البصيرة هم الذين يملأون الكون أمنا وسلاما ورحمة ووئاما واعزازا وإكراما .. لانها نفوس كان الحق هدفها والخير غايتها والقرآن إمامها والرسول استاذها .. نفوس كان أساسها توحيد الله وسلوكها طاعة الله.

إنه اليقين اذا عمر القلوب والاخلاص إذا أضاء النفوس! «ومن

اراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا».

ما اعظم الإيمان فى بناء النفوس وما أجل رسالة التوحيد فى تقويمها: «ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها».

حقا اذا بلغت النفس البشرية المؤمنة الذروة فى الإقتناع فانها تصير اشد ثباتا من الجبال الشم والرواسى الشامخات وان أجل مثل يوضح لنا هذه القضية موقف الرسول صلوات الله وسلامه عليه يوم أحاطت به الأشرار تحاول ان تطفىء جذوة الايمان فماذا قال؟ قال كلمته المشهورة التى طالما اهتزت لها اعواد المنابر ووصل رنينها إلى اعماق القلوب قال بلسان الحق: «والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

• الوحدانية تتجلى فى أداء مناسك الحج :

كل شيىء فى هذا الوجود ينطق بوحدانية الله ويذعن لأمره وله أسلم من فى السموات ومن فى الأرض طوعا وكرها ولقد علم الله ان

سيكون هناك قوم فى قلوبهم زيغ يحاولون أن يثيروا الغبار على حقائق الاشياء وهم يعلمون ان حقائق الاشياء ثابتة والعلم بها متحقق ولكنهم يتشبثون بأن يمضغوا الهواء ويفتلوا من الرمال حبالا وأنهم بذلك يظنون أنهم سيثيرون التراب على السماء وينسون أو يتناسون أنهم يثيرونه على أنفسهم وستبقى السماء هى السماء ضاحكة السن بسامة المحيا.

قالوا وقلوبهم مليئة بأمراض الشبهة «أتذهبون الى منى لترموا أحجارا بالحصا؟ قلنا لهم نعم أتعلمون لماذا؟ أنسيتم ان الاسلام يرجم الشر ويطارده فى أى عرصة من عرصات الدنيا ويقف له بالمرصاد ماديا ومعنويا نحن نرجم هذه الأماكن التى ظهر فيها إبليس لخليل الرحمن ابراهيم عندما أخذ إبنه اسماعيل لينفذ أمر الله فيه وبينما هما فى طريقهما إلى مكان الذبح عرض الرجيم للخليل وقال له: «ان الذى أمرك بذبح إبنك إنما هو الشيطان وليس ذلك بأمر من الله فارجع ولا تنفذ هذا الأمر. فقال له الخليل بلسان اليقين : إخسأ يا ملعون ورماه بسبع حصيات فساخ فى الأرض ولكنه لم ييأس بل قال للذبيح إسماعيل أتدرى إلى أين يذهب بك أبوك؟ انه سيذبحك فقال له الذبيح بلسان اليقين: «ان كان هذا بأمر من الله فأنا فداء

لأمر الله راضيا مطمئنا وان كان هذا بأمر أبى فلست أرحم بى منه» ولكن الشيطان لم ييأس فذهب إلى أم الذبيح وقال لها ما قاله للذبيح فردت عليه بما رد به اسماعيل «ان كان هذا بأمر من الله فنحن فداء لأمر الله وان كان هذا بأمر أحد غير الله فلست أرحم بإبنى من أبيه. فاذا كان ابراهيم قد رمى الجمار فى تلك المواقع فأى شيىء فى هذا العمل إذا إتبعنا ملة إبراهيم بأمر من مالك الملك .. ان الايمان تصديق وتسليم واذعان ولا يكفى هذا بل التزام واستمساك بالأوامر.

قال تعالى «آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله» ولم يكتف النص بما سبق بل نص على الالتزام بصراحة ووضوح فقال «وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير».

ولذا كان الصادق المعصوم يقول لأصحابه لا تكونوا كبنى اسرائيل قالوا سمعنا وعصينا ولكن قولوا سمعنا وأطعنا..

فأى شيىء فى رمى الجمار اذا كان فيه من الدلالات والاشارات مالا يخفى فى مطاردة الشر أيا كان موقعه وأين كان مكانه. أما الذبح فانه فيه من المعانى الكريمة ما فيه فهو امتداد لفداء اسماعيل

بذبح عظيم وفيه معنى التضحية والايثار وفيه الجانب الاقتصادى فى أصوافها وأوبارها وأشعارها وفيه الثروة الحيوانية وفيه قوله جل شأنه «فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير».

ولو أننا استثمرنا ما يفيض عن الحاجة فأدخلنا اللحوم فى مصانع الحفظ والتعليب وقدمناها الى فقراء المسلمين فى شتى أرجاء الارض مجانا لأتت النتيجة طيبة ولتقبلها الله بقبول حسن فالمسلمون أخوة مهما نأت ديارهم وبعدت أماكنهم ، الاسلام لا يعرف الحدود ولا الأسوار ولا جوازات السفر ولا تأشيرات الدخول ولا الخروج إنما يعرف «ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون».

ولست أدرى سوى الاسلام لى وطنا
الشام فيه ووادى النيل سيان
وكلما ذكر اسم الله فى بلد
عددت أرجاءه من لب أوطانى

وبعد رمى الجمار وذبح الهدى يأتى الحلق اى حلق الشعر أو تقصيره فقد كنا ممنوعين منه بحكم الاحرام ، لا حلق ولا تقصير ولا طيب ولا لبس المخيط وغير ذلك من شهوات النفس كقرب

الزوجات فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ولكن جاء الحلق أو التقصير اشارة إلى إباحة ما كان منهيا عنه قبل ذلك قال جل شأنه : «ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق» والمراد بالتفث ما علق بالاجسام من عرق وغبار فأى شيىء تحاولون أن تثيروا به الشبهة على تلك المناسك الطيبة الطاهرة التى حفتها الملائكة وغشيتها الرحمة ونزلت عليها السكينة وذكر الله أهلها فيمن عنده انها زينت بالتهليل والتلبية (لبيك اللهم لبيك).

● الأضحية :

«إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر ان شانئك هو الأبتر» عرف الفقهاء الأضحية بأنها ذبح حيوان مخصوص فى وقت مخصوص بنية التقرب الى الله تعالى والحديث عن الأضحية نلخصه فيما يلى :

الاضحية هى الغنم والبقر والابل وقد شرعت الأضحية بصريح قوله تعالى «فصل لربك وانحر» وبقوله جل شأنه «والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها واطعموا القانع والمعتر كذلك

سخرناها لكم لعلكم تشكرون ، لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرناها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين».

والمراد بوجبت جنوبها اى سقطت على الأرض بعد الذبح. والمقصود بالقانع والمعتر أى الذى يسأل الصدقة كما فى قوله تعالى «للسائل والمحروم» فما أجمل أن نوجه نظرنا الى الذين قال فيهم «للفقراء الذين احصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا وما تنفقوا من خير فان الله به عليم».

نعم ما أجمل الصدقة وما أجل العطاء اذا كان لهؤلاء الذين يبيتون على الطوى ويستحون ان يريقوا ماء وجوههم ولسان حالهم يقول نزح بحرين بغربالين وحفر بئرين بإبرتين وغسل عبدين اسودين حتى يصيرا كأبيضين وكنس أرض الحجاز فى يوم شديد الهواء بريشتين خير لى أن أقف على باب غير باب الله تعالى يضيع فيه ماء عينى وقد ثبت فى السنة ان النبى ﷺ ضحى وضحى المسلمون واجمعوا على ذلك.

● **فضـلهـا :**

روى الترمذى عن عائشة ان النبى ﷺ قال «ما عمل آدمى من عمل يوم النحر احب الى الله من اهراق الدم وانها لتأتى يوم القيامة بقرونها واشعارها وأظافرها وان الدم ليقع من الله بمكان قبل ان يقع على الأرض فطيبوا بها نفسا».

● **ما حكمـهـا :**

الاضحية سنة مؤكدة ويكره تركها مع القدرة عليها لحديث أنس الذى رواه البخارى ومسلم ان النبى ﷺ ضحى بكبشين أملحين أقرنين ذبحهما بيده وسمى وكبر وروى ميسلم عن أم سلمة ان النبى ﷺ قال «اذا رأيتم هلال ذى الحجة وأراد أحدكم ان يضحى فليمسك عن شعره واظفاره فقوله اراد ان يضحى دليل على السنة وتجب الاضحية اذا نذرها لقول الرسول ﷺ «من نذر ان يطيع الله فليطعه» وحتى لو مات الناذر فانه تجوز النيابة فيما عينه بنذره قبل موته أو ان يقول هذه لله أو هذه اضحية وعند مالك اذا اشتراها بنية الأضحية وجبت.

● **ما حكمتها :**

شرع الله الاضحية احياء لذكرى ابراهيم وتوسعة على الناس يوم العيد كما قال الرسول ﷺ انما هى ايام اكل وشرب وذكر لله عز وجل.

● **مم تكون الأضحية :**

لا تكون إلا من الإبل والبقر والغنم ولا تجزىء من غير هذه الثلاثة يقول الله سبحانه وتعالى «ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام» ويجزىء من الضأن ماله نصف سنة ومن المعز ماله سنة ومن البقر ماله سنتان ومن الابل ماله خمس سنين يستوى الذكر والانثى.

● **هل تجوز الأضحية بالخصى :**

لا بأس بالأضحية بالخصى روى احمد عن ابن رافع قال ضحى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين موجوءين خصيين ولأن لحمه أطيب وألذ.

• ما شــروط الأضحية :

ويشترط فى الاضحية ان تكون سليمة خالية من العيوب فلا تجوز الاضحية بالمعيبة.

• ما وقتـــها :

يشترط ألا تذبح إلا بعد طلوع الشمس من يوم العيد ويمر من الوقت قدر ما يصلى العيد ويصح ذبحها بعد ذلك فى اى يوم من الأيام الثلاثة فى ليل أو نهار ويخرج الوقت بانقضاء هذه الأيام.

قال ابو بردة: خطبنا رسول الله ﷺ يوم النحر فقال من صلى صلاتنا ووجه قبلتنا ونسك نسكنا فلا يذبح حتى يصلى.

روى الشيخان عن الرسول ﷺ من ذبح قبل الصلاة فانما يذبح لنفسه ومن ذبح بعد الصلاة والخطبتين فقد أتم نسكه وأصاب سنة المسلمين.

• قصـــة الذبيـــح :

نعم للذبيح قصة وفى جنباتها عبرة وعبرة وهل خلت قصة نبى من عبرة.

«لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الالباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيىءوهدى ورحمة لقوم يؤمنون».

رزق الخليل ابراهيم الولد وعنده من العمر ست وثمانون سنة والولد هنا هو نبى الله اسماعيل جاء على حين اشتد شوقه إليه وقال انى ذاهب الى ربى سيهدين رب هب لى من الصالحين فبشرناه بغلام حليم .. وأمه هاجر التى شرفت مصر بانتمائها اليها فاسماعيل أبو العرب والمصريون بذلك أخوال العرب ولمصر ان تفخر بتلك الخؤولة الكريمة فماذا بعدما رزق ابراهيم الولد وقد بلغ من الكبر عتيا هذه منحة ، وكثيرا ما تقترن المنحة بالمحنة ليكون حال العبد دائرا بين الشكر والصبر الشكر فى النعماء والصبر على البلواء لقد تغلغل حب اسماعيل فى كيان ابراهيم فأراد ربك ان يبتلى ابراهيم فى ولده فلما بلغ معه السعى قال يا بنى انى أرى فى المنام أنى اذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين. أنها رؤيا ورؤيا الانبياء حق لانها وحى فقد رأى سيد الخلق محمد ﷺ فى المنام انه يدخل المسجد الحرام مع أصحابه امنين محلقين رءوسهم ومقصرين وكان ذلك وحيا قال الله فيه «لقد

صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من ذلك فتحا قريبا».

قال الوالد بلسان الابوة الحانية يا بنى وهى كلمة جاء التصغير فيها للرحمة والرقة «إنى ارى فى المنام انى اذبحك» هكذا جاء الاسلوب بصيغة الحاضر مع انه رأى فى الماضى وذلك لاستحضار الصورة التى رآها وكأنها شاخصة للأبصار وقت أن قص عليه الرؤيا (أنى اذبحك) ولم يقل (ذبحتك) هكذا ليعرض عليه الأمر قبل أن ينفذه فقال الغلام بلسان البنوة البارة المتأدبة (يا أبت افعل ما تؤمر) فالتاء هنا للتوقير والاجلال افعل ما تؤمر ولم يقل له افعل ما تأمر اى جاء الاسلوب بصيغة ما لم يسم فاعله (تؤمر) هكذا اى ان الأمر ليس أمرك انما الأمر من الله وانت به مأمور فما دام ذلك كذلك فما كان لى أن أخالف امر الله وما كان لك ان تتردد فى تنفيذه فان أمر الله لا يقبل المساومة وأنصاف الحلول أو ما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امرا ان يكون لهم الخيرة من امرهم ومن يعصى الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا وانما عرض ابراهيم الامر على ابنه بقوله (فانظر ماذا ترى) بفتح التاء وفى قراءة (فانظر ماذا

تُرى) بضم التاء اى ما الذى ترينى إياه من رأى انما فعل ابراهيم ذلك مع انه يعلم اليقين بل حق اليقين بل عين اليقين ان الذى راه فى المنام وحى لا سبيل للشيطان فيه فعل ذلك ليسجل الاسلام لعلى بن ابى طالب ليلة هجرة الحبيب عندما اخبره الخبر وقال له لقد أجمع القوم الليلة على قتلى وقد أذن الله لى بالهجرة فهل تنام الليلة فى فراشى لكى تؤدى عنى الودائع لأهلها فقال على الفدائى الأول فى الاسلام نفسى لك الفداء يا رسول الله قالها وهو يعلم علم اليقين ان الخطب جسيم والخطر محتدم والموقف صعب عصيب ولكن هل هناك خطر لقلب علم ان كل شيىء بقضاء فما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك لا الأمر امرى ولا التدبير تدبيرى التقدير تقديرى ولا الأمور التى تجرى بتدبيرى لى خالق رازق ما شاء يفعل بى أحاط بى علمه من قبل تصويرى «إنا كل شيىء خلقناه بقدر وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر سبحانه كل شيىء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال وما أشبه الليلة بالبارحة ما أشبه علياً بسيدنا رسول الله اسماعيل مع خليل الرحمن ابراهيم عليهم من الله صلوات ورحمة وبركات إنه حميد مجيد.

● ذروس وعـبر :

فى قصة الفداء دروس وعبرة لاولى الالباب. قال ابراهيم لاسماعيل يا بنى انى ارى فى المنام انى اذبحك فانظر ماذا ترى. قال اسماعيل لأبية يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين،قد تأخذك الدهشة ويستولى عليك العجب عندما تعلم ان نوحا عليه صلوات الله وتسليماته قد دعا ابنه الى النجاة فأبى. يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين قال سأوى الى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من امر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين.

وتأمل معى قوله تعالى «وحال بينهما الموج» حتى يكون ذلك رحمة بنوح وحتى لايرى مصرع ولده فالموج حائل بين الرؤية وبين المأساة ويسدل الستار على تلك الفجيعة حتى تعتلج لواعج الأبوة فى قلب نوح فيقول رب ان ابنى من اهلى وان وعدك الحق وانت احكم الحاكمين هكذا بلسان النبوة التى تفيض أدبا وخلقا وتشع جلالا وجمالا ولكن القضاء الحاسم مبرم لا يقبل إستئنافا ولا نقضا. قال يا نوح انه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم انى أعظك ان تكون من الجاهلين ،

هكذا اذا قضى الله أمرا فلا مبدل لأمره ولا معقب لحكمه لا محسوبية ولا رشوة ولا ركوب للموجة على حساب الحق.

وتدارك نوح الموقف قال رب انى اعوذ بك ان اسألك ما ليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى اكن من الخاسرين.

وجاء منطق الرحمة التى وسعت كل شيىء «قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم قليلا ثم يمسهم منا عذاب أليم». سبحانك ربى شعاع من رضاك يطفىء غضب ملوك اهل الأرض ولمحة من غضبك تزهق الروح ولو انغمست فى نعيم الدنيا قطرة من فيض جودك تملأ الأرض ريا ونظرة بعين رضاك تجعل الكافر وليا «تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين».

فيارب ان لم اكن اهلا لبلوغ رحمتك فان رحمتك اهل لان تبلغنى فأنت القائل «ورحمتى وسعت كل شيىء» وانا شيىء فلتسعنى رحمتك، نعم انه لعجب عجيب ان يدعو نوح ابنه للنجاة فيأبى ويقول سآوى الى جبل يعصمنى من الماء وان يدعو ابراهيم ابنه

للذبح فيقول يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين فماذا حدث.

لقد إستسلم الولد لأمر الله واستعد الوالد لتنفيذ حكم الله وألقى الذبيح على وجهه ليذبحه من قفاه فلما أسلما وتله للجبين قال الذبيح لأبيه يا أبت أشدد وثاقى حتى لا أتحرك فتضطرب السكين فى يدك فتصيبك بأذى وأشحذ السكين واسرع بمرورها على عنقى وارفع عنى طرف ثوبك حتى لا ينتضح بدمى فتراه امى فتحزن واذا رجعت إلى أمى فاقرئها منى السلام وحرك ابراهيم السكين فأبت ان يصيب شيئا كان الخليل يريد ان يذبح ولكن الجليل أراد ألا يذبح «وناديناه ان يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين ان هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم» فها هو ذا جبريل ينزل بالاضحية مرددا الله اكبر الله اكبر فقال الخليل لا إله الا الله الله اكبر فقال الذبيح الله اكبر ولله الحمد.

فصارت هذه الصيغة تكبيرا نزين به اعيادنا وصار هذا الفداء سنة نضحى به فى عيد الاضحى قال ﷺ ضحوا فانها سنة ابيكم ابراهيم وقال من وجد سعة ولم يضح فلا يقربن مصلانا وقال لابنته

فاطمة يا فاطمة قومى فباشرى أضحيتك فانه يغفر لك بأول قطرة من دمها كل ذنب والافضل ان تقسم الاضحية أثلاثا ثلث يتصدق به على الفقراء البائسين وثلث يهدى للاصدقاء وثلث لأصحاب الأضحية على أن يكون افضلها للفقراء فكلوا منها واطعموا البائس الفقير.

● **أيها العائـدون :**

لو يعلم الحجاج والعمار ماذا أعد الله تعالى لهم من عظيم كرمه وفيض نعمه لخروا لله ساجدين ولقال كل منهم بلسان الضراعة رب اوزعنى ان اشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وان اعمل صالحا ترضاه وادخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ولانطلقت الالسنة تنهج بالثناء على رافع السماء ولهتف كل قلب بهذا الدعاء «رب اوزعنى ان اشكر نعمتك التى انعمت على وعلى والدى وان اعمل صالحا ترضاه واصلح لى فى ذريتى إنى تبت إليك وانى من المسلمين».

يكفيك دليلا على ما ذكرنا قول الصادق المعصوم «الحجاج والعمار وفوالله دعاهم فأجابوه وسألوه فاعطاهم».

وان أردت المزيد من الفضل فاستمع بخشوع واجلال الى هذا المشهد المهيب الذى دل دلالة قاطعة على نبوة الصادق الأمين الذى زكاه ربه اعظم تزكية زكى عقله فقال ما ضل صاحبكم وما غوى وزكى لسانه فقال وما ينطق عن الهوى وزكى شرعه فقال ان هو الا وحى يوحى وزكى امين وحيه فقال علمه شديد القوى وزكى فؤاده فقال ما كذب الفؤاد ما رأى وما طغى وزكى اهل بيته فقال انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا وزكى رسالته فقال وما ارسلناك الا رحمة للعالمين وزكى نساءه فقال وأزواجه أمهاتهم وكاه كله فقال وانك لعلى خلق عظيم.

استمعوا ايها العائدون من بيت الله الحرام الى هذه الحجج القاطعة على صدق الرسالة الساطعة واغترفوا من تلك المناهل العذبة فالمنهل العذب كثير الزحام.

روى ابن عمر رضى الله عنهما قال كنت جالسا مع النبى ﷺ فى مسجد منى فأتاه رجل من الانصار ورجل من ثقيف فسلما ثم قالا يا رسول الله جئنا نسألك فقال: ان شئتما أخبرتكما بما جئتما تسألانى عنه فعلت وان شئتما أن أمسك وتسألانى فعلت؟ فقالا أخبرنا يا رسول الله فقال : الثقفى للانصارى سل فقال : أخبرنى

يا رسول الله فقال: جئتنى تسألنى عن مخرجك من بيتك تؤم البيت الحرام ومالك فيه وعن ركعتيك بعد الطواف ومالك فيهما وعن طوافك بين الصفا والمروة وما لك فيه وعن وقوفك عشية عرفة ومالك فيه وعن رميك الجمار ومالك فيه وعن نحرك ومالك فيه مع الافاضة. فقال : والذى بعثك بالحق لمن هذا جئت أسألك قال : فانك اذا خرجت من بيتك تؤم البيت الحرام لا تضع ناقتك خفا ولا ترفعه إلا كتب الله لك به حسنة ومحا عنك خطيئة وما ركعتاك بعد الطواف كعتق رقبة من بنى اسماعيل عليه السلام واما طوافك بالصفا والمروة كعتق سبعين رقبة وأما وقوفك عشية عرفة فان الله يهبط الى سماء الدنيا فيباهى بكم الملائكة يقول : عبادى جاءونى شعثا من كل فج عميق يرجون جنتى فلو كانت ذنوبكم كعدد الرمل او كقطر المطر أو كزبد البحر لغفرتها، افيضوا عبادى مغفورا لكم ولمن شفعتم له واما رميك الجمار فلك بكل حصاة رميتها تكفير كبيرة من الموبيقات وما نحرك فمدخور لك عند ربك واما حلاقك راسك فلك بكل شعرة حلقتها حسنة ويمحى عنك بها خطيئة واما طوافك بالبيت بعد ذلك فانك تطوف ولا ذنب لك يأتى ملك حتى يضع يديه بين كتفيك فيقول اعمل فيما تستقبل

فقد غفر لك ما مضى هنيئا لكم ايها الحجاج والعمار لقول الصادق الامين العمرة الى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء الا الجنة.

وهنا لا بد لنا من وقفة نجعلها لكم تذكرة وتعيها اذن واعية هل كل حج جزاؤه الجنة،ان الرسول فى هذا الحديث قيد الحج بكونه مبرورا وقد سئل عن بر الحج فقال هو لين الكلام واطعام الطعام وفسر العلماء بر الحج لقولهم هو الذى لا يخالطه اثم وقال بعضهم هو الذى يعود صاحبه راغبا فى الاخرة زاهدا فى الدنيا. فعلى كل من حج البيت واعتمر ان يعلم ان العبادات التى شرعها الله مرتبطة تمام الارتباط بالسلوك والمعاملات والاخلاق فالصلاة انما يتقبلها الله ممن تواضع بها لعظمته ولم يبت مصرا على معصيته ولم يستطل على خلقه وقطع نهاره فى ذكره ورحم المسكين وابن السبيل والارملة ورحم المصاب. والحج ليس طوافا بلا روح او سعيا بلا مضمون او وقوفا بلا حقيقة بل لا بد ان يصحب ذلك كله عمل صالح،ليس الايمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل وان قوما غرتهم الامانى حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا نحن نحسن الظن بالله وكذبوا لو احسنوا الظن لاحسنوا العمل. فلا تحسبن ان

العبادات عادات انما العبادات التزام بما شرع مبدع الكائنات فاحرص على حجك وعمرتك وصنهما عما يحبط ثوابهما فكن لين الكلام مطعما للطعام واصلا للارحام مفشيا للسلام. تدخل الجنة بسلام.

● الهجـرة معركة فاصـلة

لم تكن الهجرة النبوية الشريفة فرارا أو هروبا. من مجابهة الباطل الذى اخذ يعربد فى عرصات الدنيا انما كانت. معركة فاصلة بين معسكر الشرك ومعسكر التوحيد. نعم لم تكن هروبا انما كانت تغييرا. فى الموقع لا تغييرا فى الموقف فالموقع قد انتقل من مكة الى المدينة والقائد الحكيم الذى يجيد التخطيط والتكتيك هو الذى يفرض الموقع على عدوه وهكذا كانت الهجرة معركة ولم تكن هروبا لأن الموقف ظل ثابتا كالرواسى الشم والجبال الشامخات. الموقف هو لا إله الا الله محمد رسول الله ما تغير وما تبدل انما ظل يناطح الجوزاء ويزاحم الشمس فى الجلاء باذخا مشرئبا فقائد المسلمين الاعظم هو الذى اعلن هذه الكلمة وشهد التاريخ انه قال لعمه ابى طالب قولة حق سجلت بحروف من ذهب على صفحات من

نور قال «والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن اترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو اهلك دونه» وقال له عمه يا ابن أخى قل ما شئت فوالله لا أسلمك اليهم ابدا ثم انشد يقول والله لن يصلوا اليك بجمعهم حتى أوسد فى التراب دفينا ولقد علمت بان دين محمد من خير اديان البرية دينا، ابعد هذا الثبات والاصرار والتفانى فى سبيل الحق يقال ان الهجرة كانت هروبا، الم يعلم هؤلاء الذين هاجت عقارب البغضاء فى صدورهم وتحركت ثعابين الحقد فى افئدتهم ان الهجرة كانت استعدادا لجولة كبرى يهزم فيها الباطل واعوانه على ايدى رجال اطبوا المريض بدوائهم وامنوا الخائف فى رجاهم وقرأوا على الدنيا كتاب جهادهم فماذا بعد الحق الا الضلال. صمت اذن الدنيا ان لم تسمع لهم لقد رفعوا راية التوحيد عالية خفاقة عاشوا موحدين وماتوا موحدين وجاهدوا فى سبيلها موحدين ولقوا الله موحدين فهل تغيروا او تبدلوا او ركنوا الى الدنيا واطمأنوا بها؟ لا والله لقد كانوا كما شهد لهم رب السموٰات والأرض فى قوله : «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا».

ان معركة الهجرة بدأت من يوم خرج الرسول الصادق من غار

حراء واعلن كلمة التوحيد فى قلعة الاصنام ولم يشأ أن يحطم الاصنام لاول وهلة لأنه لو امر اتباعه ان يحطموها لاول وهلة فقد يكون فى نفوس الناس شيىء لماذا يحطمها ولكنه بيَّن الحق وظل بيان الحق حتى العام الثامن من الهجرة عندما تحقق قوله جل شأنه «ان الذى فرض عليك القران لرادك الى معاد قل ربى اعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين».

فقد مضت تلك السنوات الاحدى والعشرون من البعثة الى الفتح فى دعوة وارشاد وتوجيه وبيان حتى جاء اليوم الذى دخل الرسول الصادق فيه مكة وبها ثلاثمائة وستون صنما فى المسجد الحرام فمن الذى حطمها؟.

ان الذى حطمها هو العقيدة الراسخة التى تغلغلت فى اعماق قلوب الرجال. انه الايمان الذى اذا باشرت بشاشته شغاف القلوب يكاد يجعل المستحيل ممكنا والبحر الملح الاجاج عذبا فراتا سلسبيلا.

نعم ان الذين حطموها بدافع من عقيدة التوحيد هم الذين كانوا يعبدونها قبل ان تشرق شمس الهداية فى جنبات صدورهم وفى رحاب قلوبهم حطموها عن إقتناع ويقين وهذا هو اسلوب التربية

الصحيح والمستقيم ان تزرع ثم تجنى حصاد ما زرعت وثمرة ما غرست لقد حطموا الاصنام وهم يرددون قول الملك العلام «جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان ذهوقا».

ابعد هذه القوة فى الحق والصمود على الصدق والثبات على مبدأ التوحيد يقول اهل الضلال من المستشرقين ومن لف لفهم من المستغربين وابواق الثقافة الوافدة من هناك وسماسرة الغزو الثقافى .. ابعد هذا يقولون ان الهجرة كانت فرارا «كبرت كلمة تخرج من افواههم ان يقولون إلا كذبا».

لقد كانت ثباتا وصمودا واصرارا ..

كانت الهجرة تغييرا فى الموقع :

اول الثابتين على مبدأ الحق هو نبى الحق ﷺ .

انت الذى قاد الجيوش محطما
عهد الضلال وادب السفهاء
وسموت بالبشر الذى تعلموا
سنن الشريعة فارتقوا سعداء

ويوم هاجر الى المدينة لم تكن هجرته فرارا فقد كان اشجع الناس قال على كرم الله وجهه «كنا اذا حمى الوطيس واحمرت الحدق نحتمى برسول الله ﷺ فلم يكن احد اقرب الى العدو منه».

اليس هو الذى وقف يوم حنين وقد احاطت به الوف المشركين وليس معه الا افراد قلائل وقف ينادى: انا النبى لا كذب انا بن عبد المطلب ..

من هنا كانت هجرته تغييرا للموقع ولم تكن تغييرا للموقف.

وليست الهجرة بالامر العابر الذى تلوكه الالسنة وتنبس به الشفاة انما الهجرة كانت معركة فاصلة خطط لها البصر العلوى من فوق سبع سموات ولعل ذوى الالباب الباصرة واولى الأفئدة المستنيرة اذا نخلوا مخزون فكرهم وقدحوا زناد رأيهم وطرحوا هذا الموضوع على بساط البحث فسوف يجدون الهجرة معركة متكاملة الجوانب فوجود على بن ابى طالب فى فراش الصادق المعصوم عمل فدائى اذا تحدث عنه التاريخ جثا على ركبتيه واذا تكلمت عنه الدنيا تمرغت تحت قدميه .. انه الفداء والوفاء والطهر والاخلاص والنقاء.

ان اخاك الحق من كان معك
ومن يضر نفسه لينفعك
ومن اذا ريب الزمان صدعك
شتت فيك شمله ليجمعك

ان عليا من الذين شملتهم الآية الكريمة «ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد».

اليس ابو بكر فى صحبته لقائده الى غار ثور ودخوله الغار معه هو التضحية فى أجلى معانيها نعم ان أبا بكر كالغيث اينما وقع نفع وان ايمانه يرجح ايمان الأمة حتى كان الفاروق عمر يتمنى لو كانت له ليلة ويوم من ايام ابى بكر ولياليه ثم اليس تردد أسماء ذات النطاقين على غار ثور وهى فى شهرها التاسع من حملها وصعودها الجبل ونزولها منه. أليس بهذا الجهاد تقوم بدور الامدادات التموينية فى المعركة ، ثم أليس تردد عن عبد الله بن ابى بكر على الرسول وصاحبه فى الغار لاطلاعهم على ما يجرى بين اهل مكة وامدادهم بالمعلومات اليس هذا هو دور المخابرات الاسلامية فى المعركة ثم اليس عامر بن فهيرة ورعيه الغنم فى هذه المنطقة ليعفى على اثر الاقدام حتى لا يستدل القوم على مكان

المعركة اليس هذا من باب المكيدة فى الحرب ثم اليس دخول الرسول ﷺ المدينة فى موكب الانصار وهم مدججون بالسلاح دليلا على الانتصار فى معركة اعد لها الباطل كل ما يملك من عدة وعتاد انها المعركة بكل جوانبها ومعانيها «واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك او يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين».

إن يد الله تعمل فى الخفاء فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة فليس لاحد ان يستعجلها أو أن يقترح عليها أو ما قرأت قوله جل شأنه حكاية عن صالح فى ثمود «وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون قالوا تقاسموا بالله لَنُبيِّتَنَّهُ وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وانا لصادقون ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم اجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ان فى ذلك لآية لقوم يعلمون وانجينا الذين امنوا وكانوا يتقون». نعم وهم لا يشعرون انه التخطيط العلوى الذى لا يطلع عليه احد وما اجمل ان يقول المظلوم انى مغلوب فانتصر وما اعظم ان يقول حسبى الله عليه توكلت وهو رب العرش العظيم وما اجل ان يقول وافوض امرى الى الله ان الله بصير بالعباد

وهنالك يستجيب رافع السماء بلا عمد فدعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب وان الله يقول لصاحبها وعزتى وجلالى لانصرنك ولو بعد حين.

آيــة الهجــرة :

لما تقرر ان الهجرة كانت معركة فاصلة بين معسكر الشرك ومعسكر التوحيد اردنا ان نقيم الدليل من كتاب الله تعالى على ما قررناه واذا نطق القرآن فلا جدال لانه الحق فماذا بعد الحق الّا الضلال ولا بد لنا ان نسأل اين موقع آية الهجرة فى القرآن ونعنى بها قوله جل شأنه «إلا تنصروه فقد نصره الله اذ اخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فانزل الله سكينته عليه وايده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم».

ايـن مـوقع هذه الآية؟

لقد جاءت بين آيات النفير العام والحشد الكامل للقوات الاسلامية استعدادا لغزوة تبوك وان السياق والسباق واللحاق يدل

كل هذا على ان آية الهجرة اية جهاد فى معركة وقف فيها معسكر التوحيد ينازل معسكر الشرك فاذا رجعنا الى سباقها وجدنا قوله تعالى «يا ايها الذين امنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الأرض ارضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شيىء قدير». هذا هو سباق الآية أما لحاقها فقوله جل شأنه «انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وانفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون» اما سياق آية الهجرة فهو الجو المهيمن على ما تحتويه من معنى فهو جو الجهاد لله تعالى واعلاء كلمته وقد اشتملت آية الهجرة على ثلاث استراتيجيات اولاها إستراتيجية العدد وثانيتها استراتيجية المكان وثالثتها استراتيجية العقيدة وعلى تلك الخطوط كانت معركة الهجرة تتحرك بخطى ثابتة اما العدد فيه يقول تعالى «اذ اخرجه الذين كفروا ثانى اثنين».

وأما المكان ففيه يقول جل ذكره «اذ هما فى الغار».

وأما العقيدة فيقول فيها عظمت حكمته «اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا» فتأمل معى معركة قوة المسلمين فيها اثنان امام

جحافل الشرك وجيوش الضلال ثم تأمل معى معركة تدار من غار فى احد الجبال ثم اعجب معى لصاحب يقول لصاحبه وقد احاطت قوات الشرك بالغار من كل جانب وقد احتدم الخطر وادلهمت الخطوب حتى قال ابو بكر يا رسول الله لقد وقعت عيناى فى عينى عمرو بن هشام وهو ابو جهل فماذا قال له حارس العقيدة وحامى كلمة التوحيد قال له يا ابا بكر او ما قرأت قوله تعالى «وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون». ثم قال له ما ظنك باثنين الله ثالثهما يا أبا بكر لا تحزن ان الله معنا .. نعم من كان الله معه فمن عليه ومن وجد الله ففقد انها معركة خطط لها القدر الاعلى «انا كل شيىء خلقناه بقدر وما امرنا الا واحدة كلمح بالبصر» ثم اعجب معى لظرف الزمان (إذ) وقد كرر ثلاث مرات وليس التكرار فى القرآن عبثا انما لحكمة إلهية بالغة فالقرآن لفظ حامل ومعنى به قائم ورباط بينهما ناظم ان كلمة (إذ) تريد ان تشد انتباه القارىء لكتاب الله الى معنى بعيد المدى عميق الاثر فهى اولا تشير الى العدد وتنبه إليه ليعلم الناس ان الاسلام لا يعبأ بالكثرة لأنه يؤمن بالواحد «إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين» و (إذ) الثانية تشير الى المكان الذى أديرت منه المعركة «اذ هما فى

الغار» فليست العبرة فى المكان ضيقا وسعة انما العبرة فى القلوب التى تدير من هذا المكان و (إذ) الثالثة تشير الى قوة العقيدة عند اشتداد الخطر «لا تحزن ان الله معنا» وقد وقع الاضطراب فى جموع الاعداء حول الغار سلاح العنكبوت اخذ مواقعه الحصينة وشجرة نبتت على باب الغار جعلت أبا جهل يقسم بآلهته انه كان يرى هذه الشجيرة قبل ميلاد محمد ﷺ وحمامتان باضتا فكيف يستطيع احد ان يدخل والغار محاصر هكذا إنه سلاح من اغرب الاسلحة «وان اوهن البيوت لبيت العنكبوت» وينفض الجمع مع ان احدهم لو نظر الى موقع قدميه لرأى الرسول وصاحبه ولكن الله تعالى يريد ان يسخر بتلك القوى «سخر الله منهم ولهم عذاب أليم» واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وادبار النجوم».

واذا العناية لاحظتك عيونها
نم فالمخاوف كلهن أمان

● سـراقة بن مالك :

فى طريق الهجرة من مكة الى المدينة وقعت احداث جسام تدل

بلسان الحال والمقال على نبوة المصطفى المختار ومن هذه الاحداث ما وقع لسراقة بن مالك فى طريق الهجرة وها نحن اولاء نذكر هذا الحدث كافلا ليعلم الناس علم اليقين ان الصادق المعصوم ما كذب ابدا وكما قال هرقل عظيم الروم وهو يسأل ابا سفيان عن رسول الله ﷺ فيقول هل جربتم عليه كذبا؟

قال ابو سفيان : ما كذب محمد قط.

قال هرقل: ما كان ليدع الكذب عن الناس ويكذب على الله.

هذه كلمة حق وشهادة صدق وصدق الله اذ يقول «لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا».

واذ يقول «وارسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا».

● فماذا حدث لسراقة؟

اعرنى اذنا صاغية وقلبا واعيا ثم استمع لما يقال لك مكث النبى ﷺ فى الغار ثلاث ليال حتى يسكن طلب قريش وييئسوا من ان يصلوا اليه ﷺ وبعدها خرجا قاصدين الى المدينة ومعهما دليلهما المشرك ولكنه كان أمينا عليهما غير مدلس ولا حمال فسلك بهما

طريقا للساحل حتى لا يتبعهم احد من قريش لانهم لا يتصورون انه يسلك هذا الطريق وهم يتتبعونه ويقتفون طريقه وقد جعلوا لمن يعود به حيا أو ميتا مائة ناقة كما اشرنا من قبل وقد طمع سراقة بن مالك ابن جعشم فى ان ينالها وقد روى ابن اسحاق عنه انه قال :

لما خرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجرا جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم فبينما انا جالس فى نادى قومى اذ أقبل رجل فقال والله لقد رأيت ركبة ثلاثة مروا على أنفا انى لأراهم محمد واصحابه فأومأت اليه بعينى ان اسكت ثم مكث قليلا .. ثم امرت بفرسى وامرت بسلاحى..ثم اخذت قداحى استقسم بها ثم انطلقت فلبست لامتى فاستقسمت فخرج السهم الذى اكره وكنت ارجو ان ارده على قريش فأخذ المائة ناقة فركبت على اثره فبينما فرسى يشتد عثر بى فسقطت عنه فقلت ما هذا ثم اخرجت القداح فاستقسمت بها فخرج السهم الذى اكره فأبيت الا ان اتبعه فركبت فى اثره فبينما فرسى يشتد بى فعثر بى فسقطت عنه فقلت ما هذا ثم اخرجت قداحى فاستقسمت بها فركبت فى اثره فلما بدا القوم ورأيتهم عثر بى فرسى فذهبت يداه فى الأرض وسقطت عنه ثم انتزع يديه من الأرض وتبعهما دخان كالاعصار فعرفت حين رأيت

ذلك انه ﷺ قد منع عنى وانه ظاهر فناديت القوم فقلت انا سراقة بن جعشم انظرونى اكلمكم فوالله لا اريبكم ولا يأتيكم منى شيىء تكرهونه فقال رسول ﷺ وما تبغى منا؟ قلت تكتب كتابا يكون بينى وبينك فكتب رسول الله ﷺ كتابا ثم القاه اليه وقد استمر سراقة حافظا لهذا الكتاب حتى جاء الفتح المبين بفتح مكة ولما فرغ رسول الله ﷺ من حنين والطائف ذهب سراقة الى رسول الله ﷺ فرفعت يدى بالكتاب وقلت يا رسول الله هذا كتابك لى انا سراقة بن جعشم فقال رسول الله ﷺ هذا يوم الوفاء. اعلن سراقة إسلامه، والواقع انه كان مؤمنا بصدق النبى ﷺ من يوم ان رأى ما رأى وقد سأل سراقة بن مالك رسول الله ﷺ عن سقى الابل الضالة قائلا الضالة من الابل تغشى حياضى وقد ملأتها لابلى هل لى من أجر فى ان اسقيها؟ قال الرسول ﷺ نعم فى كل ذات كبد حرى أجر.

فحدثنى بربك من الذى منع سراقة الفارس العربى الشهير ان يدرك رسول الله ﷺ مع انه بذل اقصى جهد لينال الجائزة الكبرى والمكافأة العظمى التى وعدت بها قريش لمن يأتى بمحمد ﷺ.

من الذى جعل الفرس تغوص يداها فى الأرض، ان فى السماء مملكة يقول خالقها لنبيه «واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا» ويعطيه الامن والامان فيقول له : «يا ايها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ان الله لا يهدى القوم الكافرين» فما بالك بنبى الله تولى حفظه ووعده العصمة من الناس انه نبى الرحمة ورسول الهدى لقد حسن اسلام سراقة بن مالك فرجع الى قومه وساق الى رسول الله ﷺ صدقة ماله.

أشهد أنك رسول الله :

ماذا قال الصادق المعصوم لسراقة بن مالك انه قال كلمة حق خرجت من قلب اضاء الله جنباته بنور الحق فلا يقول الا الحق ولا يعرف الا الحق ان هو الا وحى يوحى قال لسراقة «كأنى بك وقد لبست سوارى كسرى» وكان سراقة اشعر الذراعين دقيقهما وما كان مما كان فى زمان عمر بن الخطاب وفتحت خزائن كسرى حمل المال فوضع فى المسجد فرأى عمر منظرا لم ير مثله والذهب والياقوت والزبرجد واللؤلؤ يتلألأ. فقال : اين سراقة بن جعشم فأتى

به فقال البسهما ففعل فقال : الله اكبر الحمد لله الذى سلبهما كسرى والبسهما سراقة بن جعشم فكان ذلك آية ظاهرة لرسول الله ﷺ.

ولا بد لنا هنا من سؤال متى تحققت تلك البشرى التى بشر بها رسول الله ﷺ سراقة. لقد تحققت بعد خمسة عشر عاما عندما وقف التاريخ شامخ الرأس مشرئب الهامة عزيز الجانب موفور الكرامة يذيع فى سمع الدنيا مشرقا ومغربا صدق الرسالة وعظمة صاحبها مرددا على الناس اجمعين قوله جل شأنه «وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا» ولنصحب التاريخ فى مسيرته الى بلاد فارس حتى نرى نصر الله لاصحاب محمد ﷺ وكيف جاءوا من قصر كسرى بالكنوز الغالية فهلم بنا لنصحب التاريخ وهو شاهد صدق ودليل حق. قالت أحداثه «لما كان الخليفة عمر بن الخطاب قد صمم على فتح بلاد فارس اعلن حالة التعبئة العامة وكتب الى عماله فى جميع الأقاليم واصدر منشوره الدورى والذى جاء فيه : لا تدعوا أحدا له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى الا انتخبتموه ثم وجهتموه إلى والعجل العجل فتوافدت عليه جموع المسلمين من ذوى الاماكن القريبة من المدينة ومن كان قريبا من العراق ذهب الى

الميدان رأسا وأنضم واجتمع الى عمر جمع كبير خرج به على بعد ثلاثة اميال من المدينة فعكسر بمكان يسمونه صرارا وكان قد عزم على المسير به الى العراق فمنعه من ذلك كبار الصحابة حتى (يدبر امر المسلمين ان نابت الجيش نائبة) واشاروا عليه بسعد بن مالك بن ابى وقاص فاستقدمه من هوازن وكان واليا على صدقاتها فحضر سعد وعين اميرا على العراق واوصاه عمر بقوله :

لا يغرنك من الله إن قيل خال رسول الله ﷺ وصاحب رسول الله ﷺ فان الله لا يمحو السيىء بالسيىء ولكنه يمحو السيىء بالحسن وليس بين الله وبين احد نسب الا طاعته فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عند الله بالطاعة فانظر الأمر الذى وجدت رسول الله ﷺ يلزمه فالزمه.

واجتمع فى المدينة قرابة عشرين الفا فيهم من حضر بدرا وتحرك القائد المغوار سعد إلى القادسية وودعه أمير المؤمنين على ابواب المدينة وتحرك الجيش حتى نزل القادسية بعد ان انضم اليه عدد كبير من مجاهدى المسلمين فبلغت عدته خمسة وثلاثين ألفا وهناك

وصله خطاب من امير المؤمنين يأمره فيه ان يرسل وفدا الى كسرى يعرض عليه الاسلام او الجزية او الحرب فارسل سعد الى يزدجرد وفدا فيه النعمان بن مقرن والاشعث بن قيس والمغيرة بن شعبه وعاصم بن عمر فعرضوا عليه الاسلام فأبى فخيروه بين الجزية والحرب فغضب وقال لولا ان الرسل لا تقتل لقتلتكم وقال لهم أيها العرب ان مثلكم كمثل الذباب الذى قال : من يحملنى الى العسل وله درهم فلما سقط فيه قال : من يخرجنى منه وله درهمان ثم امر بطردهم وامران يحمل اشرفهم حملا من التراب فحمله عاصم مدعيا انه اشرفهم وقال لهم كسرى وارجعوا الى صاحبكم واعلموه انى مرسل اليه رستم حتى يدفنكم واياه فى خندق سابور وينكل بكم وبه» وهكذا ركب كسرى رأسه وركب الشيطان رأس كسرى فعشش فيه الالحاد وقد خاب من افترى «ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى».

لا تظلمن اذا ما كنت مقتدرا
فالظلم ترجع عقباه الى الندم
تنام عينك والمظلوم منتبه
يدعو عليك وعين الله لم تنم

فلما وصل الوفد الى سعد قال عاصم ابشرك بالنصر فوالله لقد اعطانا مقاليد ملكه وسلمه التراب ان الله تعالى هو العظيم وحده والقوى وحده ولقد قال الصديق ايام خلافته كلمة حق عندما ارسل انذرا حربيا شديد اللهجة الى كسرى وقال له :

كيف تتكبر على الله وانت الذى نزلت من مجرى البول مرتين مرة من صلب أبيك ومرة من رحم امك.

عبد الحميد كشـك

طبع بمطابع المروة بالأسكندرية
تليفون : ٤٣٠١٣٤٨ ـــ ٤٣٠١٣٤٩